المحبة الإلهية

عند ذي النون المصري

د. إيمان عبد الحميد أحمد عبدالرحمن

مدرس العقيدة والفلسفة

كلية الدراسات الإسلامية

والعربية بنات بسوهاج – جامعة الأزهر

ملخص بحث

تناول هذا البحث " المحبة الإلهية عند ذي النون المصري " ففي القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ظهر رجال عرفوا بنظريات في المحبة الإلهية ، منهم ذو النون المصري (ت: ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م)، الذي استعمل لفظة الحب في غير تردد، بل كان تصوفه في قوامه يقوم على المحبة الإلهية التي هي روح التصوف والحال المشتركة بين المتصوفة جميعًا، هي بداية البداية، ونهاية النهاية بل ان تلك المحبة هي الزاد للصوفي في طريقه إلى الله.

بل تعد المحبة الإلهية من أعلى مقامات العارفين، وهي إيثار من الله لعباده المخلصين، وفضل منه تعالى عظيم، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها .

وقد تناولت المحبة الإلهية عند ذي النون المصري ، واستنبطتها من أقواله وأشعاره، وانتهيت من ذلك بوجود نظرية المحبة الإلهية عنده وهي لا تقل أهمية عمن سبقه في ذلك.

وجاء البحث في عدة نقاط على النحو الآتي: تعريف بذي النون، نشأته وحياته العلمية، وتعريف بالحب لغةً وفي اصطلاح الصوفية، ودليل المحبة الإلهية، ثم تحدثت عن المحبة عند ذي النون وعلاماتها، وصفات المحبين ودرجاتهم عند ذي النون، كما ذكرت استعماله للرمزية في التعبير عن المحبة الإلهية، ثم تناولت علاقة المحبة ببعض الأحوال والمقامات؛ كالرضا، والشوق، والأنس، والفناء، والمعرفة؛ وذلك لوضوح ارتباطها بالمحبة في عبارات ذي النون، ولما لها من تأثير وتأثر بالمحبة الإلهية عنده، وأخيرًا ذكرت نماذج من مشاهدات ذي النون للمحبين، ثم أنهيت البحث بخاتمة أوضحت فيها مدى أهمية المحبة الإلهية في تصوف ذي النون المصري.

Abstract

Dhul-Nun al-Misri's Love of God This paper sheds light on the concept of Love of God in Dhul-Nun al-Misri's thought. In the thirteenth Hijri century, a group of men emerged as lovers of God, and Dhul-Nun al-Misri (Died 642 H/820 AD) is just one of them. He uses the word "love" unhesitantly, and as a matter of fact his mystic though is based on love of God which is the essence of mysticism, and a common conceptualization among all mystic figures. Love of God, for mystics, is the beginning and the end, it's the mystic's support on the path of God, one of the highest spiritual ranks, a favor from God to the devoted believers, and a great honor. There is nothing beyond realizing this Godly love unless it's one of its fruits and a consequence, and there nothing comes before it unless it's an introduction to it.

I have studied Dhul-Nun al-Misri's love of God, deducting it from his poetry and sayings and have come to the conclution that his theory of love of God is not less significant than his predecessors.

The paper sheds light on the following: a biography of Dhul-Nun al-Misri and a synopsis about his life and contributions, linguistic and mystic definitions of love, proofs of Godly love, Dhul-Nun al- Misri's concept of love, signs of that love, and characteristics and ranks of lovers. I have also highlighted his use of symbolism to express love of God, and how love relates to certain conditions and ranks like satisfaction, missing, affability, evanescence, knowledge, which are obviously relevant and effective concepts to love for Dhul-Nun al-Misri. Finally, I have presented models of Dhul-Nun al-Misri's observations of lovers of God. In the conclusion, I reflect upon the significance of love of God in Dhul-Nun al-Misri's model of mysticism.

مقدمة

الحمد لله مسبغ النعم، ومتمم الفضل، ومحيي القلوب، وصلاةً وسلامًا على الحبيب المحبوب، والمبعوث رحمةً للعالمين، ومنارًا للسالكين، وقدوةً للعارفين، سيدنا محمد (ﷺ)، وعلى آله وصحبه والتابعين إلى يوم الدين.

أما بعد ..

فإن المحبة هي أسمى وأرقى العلاقات في الوجود، تأتي نتيجة صفاء القلب ونقائه مما فيه من شوائب مختلفة الألوان، وفيها المحب يمنح أغلى ما لديه وأشرف ما يملكه لمحبوبه، وهو روحه التي بين جنبيه.

والمحبة الإلهية هي روح التصوف والحال المشتركة بين المتصوفة جميعًا، هي بداية البداية، ونهاية النهاية بل هي الزاد للصوفي في طريقه إلى الله.

كما أن المحبة الإلهية من أعلى مقامات العارفين، وهي إيثار من الله لعباده المخلصين، وفضل منه تعالى عظيم، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها.

وقد ظهرت أول نظرية صوفية في الحب الإلهي عند رابعة العدوية (ت: ١٨٥هـ/ ٨٠١م) التي تغنت بحبها لله؛ فأحبته لذاته لا خوفًا من ناره ولا طمعًا في جنته، وصارت المحبة الإلهية من بعد رابعة المحور الذي تدور عليه الحياة الصوفية، والهدف الذي تتجه إليه.

وظهر في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) خاصةً رجال عرفوا بنظريات في المحبة الإلهية، منهم ذو النون المصري (ت: ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م)، الذي استعمل لفظة الحب في غير تردد، بل كان تصوفه في قوامه يقوم على المحبة الإلهية، التي هي محور موضوع هذا البحث الذي بصدده.

وسوف أتناول في هذا البحث " المحبة الإلهية عند ذي النون المصري " .

وقد وقع اختياري لهذا الموضوع لأن المحبة الإلهية لم تُبحث من قبل بشكل منفرد عند ذي النون، بل إن الكتابات السابقة كانت تتحدث عن تصوف ذي النون، مع إشارات مقتضبة

عن المحبة الإلهية عنده، اقتضتها ضرورة تلك الكتابات، لذا حرصت على السير في هذا الموضوع ، وجمع أطرافه، وبحثه في دراسة مستقلة بذاتها تبين أهميته.

وقد تناولت المحبة الإلهية عند ذي النون، واستنبطتها من أقواله وأشعاره، وانتهيت من ذلك الي القول بأن نظرية المحبة الإلهية عنده لا تقل أهمية عمن سبقه في ذلك.

وجاء البحث في عدة مباحث :

المبحث الاول : التعريف بذي النون، نشأته وحياته العلمية .

المبحث الثاني : تعريف المحبة لغةً وفي اصطلاح الصوفية، ودليل المحبة الإلهية .

المبحث الثالث : المحبة الإلهية عند ذي النون وعلاماتها .

المبحث الرابع : صفات المحبين وطبقاتهم عند ذي النون .

المبحث الخامس : الرمزية في التعبير عن المحبة الإلهية عند ذي النون .

المبحث السادس : علاقة المحبة الإلهية ببعض الأحوال والمقامات .

المبحث السابع : نماذج من مشاهدات ذي النون للمحبين الإلهيين .

ثم أنهيت البحث بخاتمة أوضحت فيها مدى أهمية المحبة الإلهية في تصوف ذي النون المصري.

المبحث الاول

التعريف بذي النون المصري (نشأته وحياته العلمية)

هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم المصري، المعروف بذي النون، ولد في مدينة أخميم بصعيد مصر سنة١٨٠هـ /٧٩٦م ، وكان أبوه نوبي الأصل يعيش بمدينة أخميم (١). ومولى لإسحاق بن محمد الأنصاري ، وكان لإبراهيم أربعة بنين: ذو النون، وذو الكفل، وعبد الباري، وعبد الخالق (٢) .

نشأ ذو النون في كنف أبيه وأسرته بمدينة أخميم، وتعلم بها حتى بلغ مبلغ الرجال، ووصفه ابن خلكان بأنه "كان رجلاً نحيفًا تعلوه حمرة، ليس بأبيض اللحية" [٣]. وكان ذو النون مولعًا بطلب العلم، ومصاحبة الأولياء، فقد كان ذا علم وورع، له لسان في المعرفة [٤]. رحل إلى مدينة الفسطاط، والتقى بالعديد من علمائها ورجالات التصوف بها، وذاع صيته بينهم حتى صار أوحد وقته علمًا وورعًا وحالاً وأدبًا، ولهذا عرف بأنه الصالح المشهور أحد رجال الطريقة [٥]. بل أصبح أحد مشاهير الزهاد في وقته بمصر [٦].

ووصفه المناوي بأنه " العارف الناطق بالحقائق ، الفائق للطرائق ، ذو العبادات الوثيقة والإشارات الدقيقة والصفات الكاملة ، والنفس العاملة والهمم الجلية ، والطريقة المرضية ،

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة القاهرة، سنة ١٩٤٨م، ج١، ص ٣١٥، ص ٣١٦ ، عبد الرحمن بدوي :شهيدة العشق الالهي رابعة العدوية ، ص٧١.

(٢) ابن الجوزي: صفوة الصفوة، طبعة حيدر أباد، سنة ١٣٧٥هـ، ج٤، ص ٢٨٧.

(٣) ابن خلكان: المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣١٦.

(٤) ابن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، تحقيق: عبد الحميد صالح، طبعة القاهرة، سنة ٢٠٠٦م، ص ١٨.

(٥) ابن خلكان: المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣١٥.

(٦) الهجويري: كشف المحجوب، ترجمة وتحقيق: إسعاد عبد الهادي قنديل، مراجعة أمين عبد المجيد، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية مصر، سنة ١٩٧٥م، ج١، ص ٣١١؛ موجز دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى، بيروت، سنة ١٩٩٨م، ج١٦، ص ٥٠٠٢.

والمحاسن الجزيلة المتبعة ،والأفعال والأقوال التي لا تخشي منها تبعة ، زهت به مصر وديارها، أشرق بنوره ليلها ونهارها " [١].

وكان لذي النون طرف كثيرة وكلمات طيبة في حقائق العلوم؛ كقوله: "العارف كل يوم أخشع، لأنه في كل ساعة أقرب" [٢]. ودفعه حبه للعلم على تعلم المزيد، فدرس علم الحديث حتى صار من رواة الحديث الثقات في وقته [٣]. وكان من المعدودين في جملة من روى الموطأ عن الإمام مالك رضي الله عنه [٤].

وكان أول من تكلم في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية ، وأبرز من أدخل الوجد والحب المطلق في التصوف [٥] .

وقد تحير أهل مصر في شأن ذي النون آنذاك، وأنكروا عليه الكثير من أقواله، وعلى حد قول الهجويري لم يعرف أحد من أهل مصر جمال حاله .." [٦]. ولم يسلم من كيد الكائدين والحاسدين له حتى اتهموه بالزندقة، ووشوا به إلى الخليفة المتوكل العباسي (٢٣٢– ٢٤٧هـ/ ٨٤٧– ٨٦١م) في بغداد، والذي أمر بإحضار ذي النون من مصر إلى بغداد، فلما دخل على الخليفة المتوكل وعظه ذو النون، فبكى المتوكل ورده مكرمًا إلى مصر، وكان الخليفة المتوكل بعدها إذا ذكر أهل الورع بين يديه يبكي ويقول: "إذا ذكر أهل الورع فحي هلا بذي النون" [٧].
[٧].

---

[١] الكواكب الدرية ، ح١ القسم الثاني ،ص٥٩٧.

[٢] الهجويري: المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣١٢.

[٣] ابن عربي: المصدر السابق، ص ٢٤.

[٤] ابن خلكان: المصدر السابق، ج١، ص ٣١٥.

[٥] جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة ،طبعة بيروت دار الطليعة ،الطبعة الثالثة سنة ٢٠٠٦م ، ص٣١٤.

[٦] كشف المحجوب، ج١، ص ٣١١.

[٧] ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص ٣١٦.

وكثرت رحلات ذي النون وسياحاته في البلدان، وتقابل مع عديد من الأولياء والصالحين من الصوفية، ودارت بينه وبينهم مناظرات يطول ذكرها هنا، فرحل إلى مكة المكرمة وبيت المقدس، واليمن، وسافر إلى بلاد الشام، ودخل إلى تيه بني إسرائيل، كما سافر إلى بغداد، وسامراء، والبصرة، وبلاد المغرب، وانتهى به المقام بعد سياحاته هذه إلى وطنه مصر [١].

أساتذة ذي النون وتلاميذه:

وقد ظهرت موهبة ذي النون العلمية أثناء سياحاته ورحلاته في طلب العلم حتى نال إعجاب أستاذه وشيخه "شقران العابد"، الذي كان يفخر به [٢]. حيث صارت لذي النون مكانته في عصره، ومن بين أساتذة ذي النون نذكر "فاطمة النيسابورية" التي كان يجلها ذو النون ويقدرها، وكان يقول عنها هي ولية من أولياء الله تعالى، وهي أستاذتي، وكان قد التقى بها بمكة في حدود سنة ٢٢٣هـ/ ٨٣٧م [٣].

وكان لذي النون مجالسه التي يحضرها عديد من المريدين وطلاب العلم [٤] من تلاميذه الذين لازموه وتعلموا على يديه، وكان يعظهم دائمًا، ومن مأثور القول لتلاميذه: "إن طيب عيش الآخرة توبة الدنيا، أما رأيتم أن المراد كله قد حصل، وبلغتم وإياهم مرادكم دون أن يصيب أحد أذى" [٥].

ومن تلاميذ ذي النون نذكر: إسرافيل المغربي، يوسف بن الحسين، أبو عبد الله بن الجلا، محمد بن أحمد بن سلمة النيسابوري، وأبو عثمان سعيد بن الحكم. وكان هؤلاء من أشهر

---

[١] ابن عربي: الكوكب الدري، ص ١٥٣، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٤، ١٨٨، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٠٣؛ السيوطي: المكنون في مناقب ذي النون، تحقيق عبد الرحمن حسن محمود، طبعة القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٧٨، ٧٩، ٨٤، ٨٨.

[٢] ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص ٣١٦.

[٣] ابن عربي: الكوكب الدري، ص ١٥٤، ١٥٥.

[٤] ابن عربي: الكوكب الدري، ص ١٥٠.

[٥] الهجويري: كشف المحجوب، ج١، ص ٣١٢.

تلاميذ ذي النون المصري، الذين نقلوا عنه الكثير من أقواله، وكانوا ملازمين له في إقامته بالجيزة من أرض مصر [١].

وفي هذه الفترة بلغ ذو النون مبلغًا كبيرًا بين علماء وصوفية عصره، وينسب إليه أنه واضع أسس التصوف[٢]. وكان أول من قعد وأصلح مصطلحات الطريق وبين معارفه، وكان له لسان في المعرفة والمحبة، وكلامه معظمه يدور حول الألفة والهوى والوداد والأنس والشوق والذكر والوصال والعشق، ولغته هي لغة القلوب والحب والمحبة والمحبين [٣]. كما كان أول من تكلم بمصر في ترتيب الأحوال، وفي مقامات الأولياء [٤].

وتوفي ذو النون في سنة ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م بمدينة الجيزة، وحمل جسده في مركب إلى مدينة الفسطاط، خوفًا عليه من زحمة الناس على الجسر، ودفن في مقابر أهل المعافر [٥].

ومما يدل على مكانة ذي النون وولايته بين أهل التصوف، ما ذكره الهجويري بأنه في الليلة التي فارق فيها ذو النون الدنيا، رأى سبعين رجلاً النبي عليه السلام في النوم يقول: "إن حبيب الله ذا النون يزمع المجيء، وقد جئت لاستقباله". وحين مات ذو النون
ظهر مكتوب على جبينه: "هذا حبيب الله، مات في حب الله، قتيل الله". وذكر أيضًا أنه لما حملوا جنازته، تجمعت طيور السماء، وظللت جنازته، فتحير أهل مصر جميعًا، وندموا على ما كانوا قد ارتكبوه معه من جفاء ، وما فرط منهم في حقه واستغفروا مما انكروه عليه من ولايته وما ألحقوه به من الأذي في حياته وأجلوه بعد ذلك واحترموا قبره [٦].

---

[١] ابن عربي: المصدر السابق، ص ٣٨، ٦٣، ٧٥، ٧٨، ٨٢، ١١٥، ١١٦، ١٢٣، ١٢٧، ١٣٨، ١٤٣؛ السيوطي: المكنون في مناقب ذي النون، ص ٦٦.

[٢] عبد المنعم الحفني: الموسوعة الصوفية، طبعة القاهرة، سنة ١٩٩٢م، ص ١٦٥.

[٣] عبد المنعم الحفني: رابعة العدوية إمامة العاشقين والمحزونين، طبعة دار الرشاد، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة ١٩٩٦م، ص ١٩٢.

[٤] السيوطي: المصدر السابق، ص ٦٤.

[٥] ابن عربي: الكوكب الدري، ص ٢١.

[٦] كشف المحجوب، ج١، ص ٣١٢.

المبحث الثاني

تعريف المحبة لغةً وفي اصطلاح الصوفية، ودليل المحبة الإلهية

أولاً: المحبة لغةً:

الحب: نقيض البُغض. والحب: الوداد والمحبة، وأحبه فهو مُحب، وهو محبوب. والحبة أيضًا: اسم للحب، وتحبب إليه: تودد. والحب: الحبيب، مثل خَدن وخَدين ... الحبيب يجيء تارةً بمعنى المحب، ويجيء تارةً بمعنى المحبوب. وجمع الحب: أحباب وحبان وحُبُوب وحبة وحُب. والتحبب: إظهار الحب ... وهم يتحابون: أي يحب بعضهم بعضًا.

وفي أصل كلمة "حب" و"محبة" اختلف علماء اللغة، فمنهم من قال إن المحبة مشتقة من قولهم: أحب البعير إذا برك فلم يقدر على القيام، فكأن المحب قد لزم قلبه محبوبه فلم يرم عنه انتقالاً، ولم يبلغ عنه حولاً، فالمحب لا يبرح بقلبه عن ذكر المحبوب، بعد أن وقع في المحبة، ولا يقدر على الانفكاك. قال الشاعر:

وقف الهوى حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذيذة شوقًا لذكرك فليملني اللوم [1]

وقيل: اسم المحبة مشتق من حبة القلب، وهو موضع ينشأ فيه الحب، فأخذ اسمه من محله، وهو سويداء القلب، ويقال ثمرته، فسميت المحبة بذلك لوصولها إلى حبة القلب، قال الشاعر:

يا رب خال على خد الحبيب له في العاشقين كما شاء الهوى عبث
أورثته حبة القلب القتيل به وكأن عهدي أن الخال لا يرث [2]

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، طبعة دار المعارف، ج٢، مادة (حبب)؛ لسان الدين ابن الخطيب: روضة التعريف بالحب الشريف، تحقيق وتعليق وتقديم: عبد القادر أحمد عطا، طبعة دار الفكر العربي، د.ت، ص ٣٣٥.

[2] ابن منظور، المصدر السابق، نفس الجزء، مادة (حبب)؛ وانظر أيضًا: لسان الدين ابن الخطيب، المصدر السابق، نفس الصفحة.

وقيل: الحب مشتق من الحبة، وهو بذر النبات؛ لأن البذور لباب النبات، والحب لباب الحياة. والحِب (بكسر الحاء) بذور الرياحين، والواحد حبة، قال رسول الله (ﷺ) في قوم: يخرجون من النار فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل [١]. وقيل: اسم الحب مأخوذ من حُباب الماء وهو معظمه، فيكون على هذا اسمًا لأعظم ما في القلب. وقيل: مشتق من الحُباب وهي الفقاقيع التي تعلو الماء عند صب ماء آخر عليه، فيكون على هذا اسمًا لغليان القلب وفورانه عند الشوق والتطلع إلى لقاء المحبوب [٢].

وقيل هو مشتق من الحب الذي هو إناء واسع يوضع فيه الشيء فيمتلئ به، بحيث لا يسع غيره، كذلك قلب المحب ليس فيه سعة لغير محبوبه. وقيل أصله من الحبِّ، وهو القرط؛ لأن القرط يهتز ويميل ويضطرب في أذن المرأة المتحلية به، وكذلك المحب قلق يخشى على حبه وحبيبته فلا يثبت ولا يستقر، قال الشاعر:

لقد عشقت أذني كلامًا سمعته رخيمًا وقلبي للمليحة أعشق
وكيف التناسي من حبيب حديثه بأذني – وإن غيبت– قرط معلق [٣]

وقيل أصل المحبة الصفاء لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها حبب الأسنان، وسميت المحبة بذلك لما يستلزم قلب المحب من الصفاء. فكأن محبة المحب هي صفاء وقته، وضياء نفسيته، ونقاء مودته. وقيل: هو مشتق من الحب، وهو الخشبات الأربع التي يستقر عليها ما يوضع عليها من جرة أو غيرها، فسمي الحُب بذلك؛ لأن المحب يتحمل لأجل محبوبه، كما تتحمل الخشبات ثقل ما يوضع عليها [٤].

نستخلص مما سبق أن لفظة حب في اللغة العربية تفيد معاني عدة، منها اللزوم والثبات واللب والعلو والظهور، والحفظ والإمساك، والصفاء والبياض، وهذه المعاني على اختلافها تجتمع جميعها في المحب، وتدل على مدى تأثير هذه العاطفة القوية في نفسه.

---

[١] ابن منظور، لسان العرب، نفس الجزء، مادة (حبب).

[٢] محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، عني بترتيبه: محمود خاطر، طبعة دار المعارف، باب الحاء، مادة (حبب).

[٣] لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، ص ٣٣٤، ٣٣٥.

[٤] ابن منظور، المصدر السابق، نفس الجزء، مادة (حبب).

ثانياً : المحبة في اصطلاح الصوفية:

الحقيقة أن المتصوفة تكلموا جميعًا في المحبة، وأفردوا لها مساحات واسعة من كتاباتهم؛ لأنها الحال أو الصفة التي تفصل بينهم وبين غيرهم الذين تقوم عباداتهم لله على أساس الطمع في الثواب والخوف من العقاب. أما المتصوفة، فحال الطمع في الثواب والخوف من العقاب لا تستقيم عندهم، لأنهم تجردوا من الدنيا وعلائقها، ومن الآخرة وما فيها، وتركز طمعهم في شيء واحد هو لقاء الحبيب (الله) [١].

وهنا نتساءل ما هو تعريف الحب عند الصوفية؟

للإجابة عن هذا التساؤل نجد أنفسنا أمام رأيين مختلفين:

أحدهما: يرى أن تعريف الحب بتعريف محدد مستحيل. ومن أصحاب هذا الرأي: الإمام القشيري [٢] في قوله: "ولا توصف المحبة بوصف، ولا تحد بحد أوضح ولا أقرب إلى الفهم من المحبة ... وعبارات الناس عن المحبة كثيرة" [٣].

ويقول ابن الخطيب [٤]: "ولما كانت الحدود تأتلف من مقومات الشيء وأجزائه الذاتية، وكانت المحبة وجدانًا متفاوتًا، لا جنس له يؤخذ منه قدره المشترك، ولا فصل لعدم جنسه،

---

[١] عبد القادر عيسى: حقائق عن التصوف، ط. مطابع الديوان، نورويش، إنجلترا، د.ت، ص ٣٩٧.

[٢] القشيري: هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري النيسابوري، الصوفي، الزاهد، شيخ خراسان، ولد سنة ٣٧٦هـ/ ٩٨٦م، جمع بين علمي الشريعة والحقيقة، فذكر أنه هو المفسر المحدث الفقيه الشافعي المتكلم الأصولي الأديب والنحوي الكاتب الشاعر الصوفي لسان عصره، وسيد وقته، ومن أشهر مصنفاته الرسالة، والتفسير الكبير، توفي سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م. (أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، طبعة مكتبة المتنبي، القاهرة، د.ت، ج٢، ص ١٩٠؛ الحنبلي: شذرات الذهب، طبعة بيروت، د.ت، ج٣، ص ٣١٩، ص ٣٢٠).

[٣] أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، تحقيق ودراسة: هاني الحاج، طبعة المكتبة التوفيقية، د.ت، ص ٤٢٤.

[٤] لسان الدين بن الخطيب: هو محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني، ويلقب بلسان الدين، ولد سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م بمدينة لوشة بالأندلس، وذاع صيته بين علماء عصره في بلاد الأندلس=

تعذر هذا المطلوب مع مسامحة كبيرة فيه، فغالب ما نقل عن المتقدمين من رسوم وتعريفات، منها ما هو مأخوذ من فعل المطلوب، أو غايته، أو أعراضه ... كل يعبر بمقدار حاله، وكل قاصر لعجزه عن الإحاطة بحقيقته" [1].

ويوضح ابن الدباغ [2] السبب في عدم القدرة على التعبير عن المحبة، فيقول: "المحبة لا يعبر عنها حقيقة إلا من ذاقها، ومن ذاقها استولى عليه من الذهول على ما هو فيه أمر لا يمكنه معه العبارة، كمثل من هو طافح سكرًا، إذا سئل عن حقيقة السكر الذي هو فيه، لم يمكنه العبارة في تلك الحال؛ لاستيلائه على عقله، والفرق بين السكرين، أن سكر الخمر عرضي يمكن زواله، ويعبر عنه في حين الصحو، وسكر المحبة ذاتي ملازم، لا يمكن من وصل إليه أن يصحو منه حتى يخبر فيه عن الحقيقة" [3].

وخلاصة الرأي يوردها لنا الهجويري [4]، فيقول: "مجمل القول إن العبارة عن المحبة ليست هي المحبة؛ لأن المحبة حال، ولا يكون الحال قالاً أبدًا" [5].

= والمغرب، وبرع في العديد من العلوم، وله العديد من المصنفات التي تدل على سعة علمه، وكانت وفاته في سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م. (جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، طبعة دار الهلال، القاهرة، د.ت، ج٣، ص ٢٣٠).

[1] لسان الدين بن الخطيب، روضة التعريف بالحب الشريف، ص ٣٧٥.

[2] ابن الدباغ: عبد الرحمن بن الدباغ القيرواني (٦٠٥– ٦٩٩هـ)، وهو فقيه ومؤرخ، وله التصانيف في أهل القيروان وتاريخهم وملوك الإسلام، وكان شاعرًا له نظم جيد، ومن أشهر مؤلفاته كتاب "مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب"، وهو من الكتب المعدودة التي تبحث في المحبة بمعناها الصوفي. (عبد المنعم الحفني: الموسوعة الصوفية، ص ١٥٥، ١٥٦).

[3] عبد الرحمن بن محمد الأنصاري المعروف بـ (ابن الدباغ): مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب، تحقيق هـ. ريتر، دار صادر، بيروت، د.ت، ص ٢١.

[4] الهجويري: أبو الحسن علي بن عثمان بن علي الغزنوي الجلابي الهجويري، صاحب كتاب "كشف المحجوب"، ويعد أقدم الكتب باللغة الفارسية في التصوف وأشهرها، ومما يذكر أن الهجويري، توفي بين سنتي ٤٦٥ و٤٦٩هـ في مدينة لاهور، وقبره بها يُزار. (عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، ص ٤٠١).

[5] الهجويري، كشف المحجوب، دراسة وترجمة وتعليق: دكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل، راجع الترجمة: دكتور أمين عبد المجيد بدوي، مطابع الأهرام التجارية، ج٢، ص ٥٥٣.

وأما الرأي الثاني: فيقرر إمكان الوصول إلى تعريف محدد لمعنى الحب، وغاية ما هنالك أن هذا التعريف ليس من قبيل التعريفات العلمية التي تكون موضع الاتفاق، وإنما لا بد فيه من وقوع الاختلاف بين تعريفات الحب تبعًا لاختلاف طبيعة الإحساس به، وتفاوت القدرة على التعبير عنه عند الصوفية، وقد أدى ذلك إلى كثرة التعريفات وتعددها واختلافها، وإن كان الاختلاف غالبًا اختلافًا في الألفاظ لا في المعنى.

ومن هذه التعريفات على سبيل المثال: يعرف المحاسبي [1] المحبة فيقول: "ميلك إلى الشيء بكليتك، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك، ثم مرافقتك له سرًا وجهرًا، ثم علمك بتقصيرك في حبه" [2].

ويعرفها الجنيد[3] بقوله: "المحبة ميل القلوب". ويشرح الكلاباذي هذا فيقول: معناه أن يميل قلبه إلى الله وإلى ما الله من غير تكلف.

---

[1] أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي: كان شيخ مشايخ بغداد في وقته، كان عالمًا بالأصول والفروع، واقتدى به جميع أهل العلم في زمانه. قال التميمي: هو إمام المسلمين في الفقه، والتصوف، والحديث، الكلام. ومن مؤلفاته كتاب في أصول التصوف اسمه "الرعاية"، وله مؤلفات أخرى كثيرة، مات ببغداد، سنة ثلاث وأربعين ومائتين. (الهجويري، كشف المحجوب، ج١، ص ٣١٩؛ المناوي: الكواكب الدرية، ج١، ص ٥٨٦، ٥٨٨).

[2] القشيري، الرسالة القشيرية، ص ٤٢٧.

[3] أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزاز، وكان أبوه يبيع الزجاج، فلذلك كان يقال له: القواريري، أصله من "نهاوند" – من بلاد الجبل– ومولده ومنشؤه بالعراق. سيد الطائفة، ومقدم الجماعة، وإمام أهل الخرقة، وشيخ طريق التصوف، وكان فقيهًا، وصحب السري السقطي، والحارث المحاسبي، ومحمد بن علي القصاب البغدادي وغيرهم، وكتب الكثير من الرسائل إلى إخوانه، وكانت له حال خطيرة وعلم غزير، فإذ رأيت حاله رجحته على علمه، وإذا رأيت علمه رجحته على حاله، وكان مريدوه يلقبونه بالأستاذ، وتوفي سنة سبع وتسعين ومائتين.
[انظر: السلمي، الطبقات الصوفية، تحقيق: أحمد الشرباصي، طبعة القاهرة، سنة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص ٤٩؛ وانظر: المناوي، الكواكب الدرية، ج١، القسم الثاني، ص ٥٧٠؛ وانظر: عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، ص ١٠٧؛ وابن الجوزي: صفة الصفوة، ج١، ص ٥١٩].

وقال غيره: المحبة هي الموافقة، معناه: الطاعة له فيما أمر، والانتهاء عما زجر، والرضا بما حكم وقدر [١].

وعرفها آخرون فقالوا: المحبة الميل الدائم بالقلب الهائم.

وقيل: المحبة إيثار المحبوب على جميع المصحوب.

وقيل: موافقة الحبيب في المشهد والمغيب.

وقيل: محو المحب لصفاته وإثبات المحبوب بذاته [٢].

وإذا كان الوصول إلى تعريف دقيق للمحبة أمرًا صعبًا كما يرى بعض الصوفية؛ لذلك فإن بعض المتصوفة تحدثوا عن حقيقة الحب حديثًا لا يتقيد بحدود التعريفات الموجزة، فكان حديثهم في هذا المجال شرحًا للحب لا تعريفًا له ومنهم ذو النون المصري كما سيتضح في البحث.

فقد قالت رابعة العدوية [٣] عندما سألت عن حقيقة إيمانها: "ما عبدته خوفًا من ناره، ولا حبًا لجنته، فأكون كالأجير السوء، بل عبدته حبًا له وشوقًا إليه" [٤]. ومعنى ذلك أنها ترى أن الحب لا بد أن يكون مجردًا عن المطامع والشهوات، وأن يكون المحب مخلصًا في حبه لله بدون طلب منفعة.

---

[١] أبو بكر محمد الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، قدم له وحققه وراجع أصوله وعلق عليه: محمود أمين النواوي، طبعة ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م، المكتبة الأزهرية، ص ١٢٨.

[٢] القشيري، الرسالة القشيرية، ص ٤٢٤.

[٣] رابعة العدوية: أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية، مولاة آل عتيك المتوفاة نحو سنة ١٨٥هـ/٨٠١م، كانت البنت الرابعة لأبويها، ويروى أنها وهي طفلة خرجت هي وأخواتها من شدة الجوع وقت أن نزل القحط بالبصرة، فوجدها رجل باعها بستة دراهم، وكانت تقرض الشعر وتغنيه، وتعزف على الناي، وكان يستعملها سيدها للغناء في مجالسه، وكان ذلك يسخطها عليه بسبب اتجاهاتها الدينية القوية حتى أعتقها. وانصرفت بكليتها إلى العبادة والتقرب إلى الله، وظلت طوال حياتها منقطعة على العبادة حتى توفيت في سنة ١٨٥هـ/ ٨٠١م، ودفنت بمدينة البصرة. (د. عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، ص ١٧٢– ١٧٤).

[٤] الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، علق عليه: جمال محمود محمد سيد، طبعة دار الفجر للتراث، القاهرة، د.ت، ج٤، ص ٤١٤.

أما الكرخي[1]، فلم يبعد كثيرًا في مفهومه للمحبة عن رأي رابعة، فقد أجاب عندما سأله بعض إخوانه: "أخبرني يا أبا محفوظ، أي شيء هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق؟ فسكت فقال: ذكر الموت، فقال: وأي شيء الموت؟ فقال: ذكر القبر والبرزخ؟ فقال: وأي شيء القبر؟ فقال خوف النار ورجاء الجنة، فقال: وأي شيء هذا؟ إن ملكًا هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك، وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا".

كما يصور الداراني [2] حقيقة هؤلاء المحبين، وحقيقة محبتهم لله فيقول: "إن لله عبادًا ليس يشغلهم عن الله خوف النار، ولا رجاء الجنة، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله؟!" [3].

وللبسطامي [4]أيضًا كلمات في غاية الجمال والنفاسة تعبر عن شعور الحب عنده متمشية مع الجوهر القرآني الكريم أنه يقول: "لا يكون العبد محبًا لخالقه حتى يبذل نفسه لله في طلب مرضاته سرًا وعلانية، ويعلم الله من قلبه أنه لا يريد إلا هو" [5].

---

[1] أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي. ويقال معروف بن الفيرزان. ويقال: معروف بن علي، وهو منسوب إلى كرخ ببغداد، ويلقب بالزاهد، وهو من جلة المشايخ وقدمائهم، وكان شيخ السلسلة والمعروفين بالورع والقوة. كان أستاذ سري السقطي وصحب داود الطائي، وكان معروف أسلم على يد علي بن موسى الرضا، وتوفي سنة إحدى ومئتين ببغداد، وقيل سنة مئتين. [انظر: السلمي: الطبقات الصوفية، ص ٢٨، ٢٩؛ ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج١، ص ٤٧٢].

[2] أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني: من أهل قرية داريا بمدينة دمشق، كان عالمًا بعلم الوقت، وله كلام في المعاملات، وحفظ القلوب، ورعاية الجوارح، كانت وفاته في سنة ٢١٥هـ/ ٨٣٠م. (القشيري: الرسالة القشيرية، ج١، ص ٨٦؛ الهجويري، كشف المحجوب، ج١، ص ٣٢٤).

[3] أبو حامد الغزالي، المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

[4] طيفور بن عيسى بن آدم، أبو يزيد البسطامي: كان من جلة علماء المشايخ وأكبرهم حالاً وأعظمهم شأنًا، إلى حد أن قال الإمام الجنيد رحمه الله: "أبو يزيد منا بمنزلة جبريل من الملائكة"، وكانت وفاته في سنة ٢٦١ هـ/ ٨٧٤م. (الهجويري، كشف المحجوب، ج١، ص ٣١٧– ٣١٨؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص ٣١؛ عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، ص ٥١– ٥٦).

[5] عبد الحليم محمود، سلطان العارفين أبو يزيد البسطامي، طبعة القاهرة، د.ت، ص ١٣٣.

وخلاصة ما سبق نجده في جواب رابعة لمن سألها: كيف رأيت المحبة؟ فقالت: "ليس للمحب وحبيبه بين، وإنما هو نطق عن شوق، ووصف عن ذوق، فمن ذاق عرف، ومن وصف فما اتصف، وكيف تصف شيئًا أنت في حضرته غائب، وبوجوده ذائب، وبشهوده ذاهب، وبصحوك فيه سكران، وبفراغك له ملآن، وبسرورك له ولهان، فالهيبة تخرس اللسان عن الإخبار، والحيرة توقف الجبان عن الإظهار، والغيرة تحجب الأبصار عن الأغيار، والدهشة تعقل العقول عن الإقرار، فما ثم إلا دهشة دائمة، وحيرة لازمة، وقلوب هائمة، وأسرار كاتمة، وأجساد من السقم غير سالمة، والمحبة بدولتها الصارمة في القلوب حاكمة:

وا رحمتـــا للعاشـــقين قلـــوبهم ... فـــي تيـــه ميـــدان المحبـــة هائمـــة
قامـــت قيامـــة عشـــقهم فنفوســـهم ... أبـــدًا علـــى قـــدم التـــدلل قائمـــة
إمـــا إلـــى جنـــات وصـــل دائـــم ... أو نـــار صـــد للقلـــوب ملازمـــة [1]

ثالثاً : دليل المحبة الإلهية :

ارتبط مفهوم الحب الإلهي في تاريخ الفكر العربي الاسلامي بالصوفية ، والواقع أن مفهوم الحب الإلهي لم يكن إبداعاً صوفياً من حيث المبدأ ، فقد ورد مفهوم الحب الإلهي أول ما ورد في القرآن الكريم حيث خاطب الله عباده المخلصين بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [2]، وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [3]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [4].

---

[1] عبد الرحمن بدوي: شهيدة العشق الإلهي (رابعة العدوية)، طبعة النهضة المصرية، سنة ١٩٦٢م، ص ١٧٢، ١٧٣.

[2] سورة المائدة، الآية (٥٤).

[3] سورة البقرة، الآية (١٦٥). انظر: أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٤، ص ٣٩٣.

[4] سورة آل عمران، الآية (٣١).

وقد ورد العديد من الآيات في القرآن الكريم تؤكد حب الله للمؤمنين، بحيث يشمل هذا الحب جميع مجالات الحياة التي يحياها المؤمن؛ قال الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [2]، وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [3]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [4]، وقال الله تعالى في ضد ذلك: ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ [5]،﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [6]،﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [7].

وفي السنة النبوية أيضًا كثرت الأحاديث وتعددت في الدلالة على المحبة الإلهية؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): " ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ؛ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ" [8].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ)، يقول الله تعالى: " مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ" [9].

---

(1) سورة آل عمران، الآية (١٤٦).

(2) سورة المائدة، الآية (٩٣).

(3) سورة آل عمران، الآية (٧٦).

(4) سورة البقرة، الآية (٢٢٢).

(5) سورة البقرة، الآية (٢٠٥).

(6) سورة الحديد، الآية (٢٣).

(7) سورة آل عمران، الآية (٥٧).

(8) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان.

(9) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق، باب التواضع.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي (ﷺ) قال: "إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ : فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ" [١].

وقد جعل رسول الله (ﷺ) حب الله ورسوله من شرائط الإيمان في أحاديث كثيرة، فقال: "لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ " [٢].

وبشر الرسول (ﷺ) المحبين بالمعية مع محبوبهم، فقد روى أنس رضي الله عنه، أن رجلاً سأل النبي (ﷺ): متى الساعة يا رسول الله؟ قال: ما أعددت لها؟ قال: ما أعددتُ لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكن أحب الله ورسوله. قال: أنت مع من أحببت" [٣]. قال أنس: فقلت: ونحن كذلك؟ قال: "نعم"، ففرحنا بها فرحًا شديدًا.

والأحاديث في المحبة كثيرة، وكلها تشير إلى عظيم فضلها، وبالغ أثرها، وحين تحقق الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم بمحبة الله ورسوله، بلغوا أوج الكمال في الإيمان والأخلاق والتضحية، وأنستهم حلاوة المحبة مرارة الابتلاء وقساوة المحن، وحملهم دافع المحبة على بذل كل غالٍ ونفيس في سبيل محبوبهم؛ لعلهم يحوزون رضوانه وحبه [٤].

---

[١] أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة.

[٢] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما في كتاب الإيمان عن أنس رضي الله عنه.

[٣] رواه البخاري في صحيحه في كتاب المناقب، ومسلم في صحيحه في كتاب البر عن أنس رضي الله عنه.

[٤] عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف، ص ١٩٧.

المبحث الثالث

المحبة الإلهية عند ذي النون وعلاماتها

١-المحبة الإلهية عند ذي النون :

لقد أرسى ذو النون منذ وقت مبكر في تاريخ التصوف دعائم نظريته في المحبة الإلهية، وهي المحبة التي أشار القرآن الكريم إليها في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [١]. وأفاض في تحديد معالم تلك النظرية، فقد كان كلامه أغلبه في المحبة، وشعره ينصرف في معظمه إلى المحبة وأشواقها ولواعجها؛ وقد تحدث ذو النون عن المحبة من جانب العبد لله بحديث جديد لم يعرف به الناس من قبل، فالذين يحبون الله ترد قلوبهم بحرًا معينًا سماه "بحر محبة الله" [٢]، فيشربون من هذا البحر فيرتوون منه، حينئذ يسهل على هذه القلوب مقاومة أي عارض يعرض لها وهي في سفرها إلى لقاء المحبوب.

ويذكر ذو النون أن المحبة كما تكون من جانب العبد لله تكون أيضًا من جانب الله للعبد فيقول: "كل محب أحب الله تعالى، فالله هو المحب" [٣]. وهذا يدل على معنى الحب المتبادل بين العبد المحب والرب المحبوب.

والحقيقة أن ذا النون يصطنع لفظتي الحب والمحبة اصطناعًا صريحًا، سواء في تعبيره عن إقبال الله على العبد، أو إقبال العبد على الله، وأنه باستعماله لفظة الحب بنوع خاص إنما يشارك رابعة العدوية التي عاصرته، والتي تعد أول من استعمل هذه اللفظة استعمالاً صريحًا فيما كانت تناجي به ربها، أو فيما كانت تتحدث به عن علاقتها به، وإقبالها عليه، وإيثارها له [٤].

---

[١] سورة المائدة، الآية (٥٤).

[٢] أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، طبعة دار الفكر، بيروت، د.ت، ج٩، ص ٣٣٨؛ محمد شلبي شتيوي، التصوف والصوفية في ضوء النصوص الدينية والبراهين العقلية، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م، دار السحاب، القاهرة، ص ٩٨.

[٣] محيي الدين بن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ص ٩٠.

[٤] محمد مصطفى حلمي، موجز دائرة المعارف الإسلامية، طبعة الشارقة للإبداع الفكري، الجزء السادس عشر، في تعليقه على مادة ذي النون.

ولغة ذي النون في المحبة الإلهية لغة العارف، والفرق بينه وبين رابعة في مجال المحبة أن رابعة تحب كأنثى، وتعاني فعلاً، وتبلغ في حبها الغاية وهو العشق. والمحبة ألصق بالنساء، بينما ذو النون أستاذ ومعلم، فهو يبين المحبة وعلاماتها، ويصف أهلها، ويصنف مراتبها، وينعتها في أحوالها ومقاماتها [١]، كما سيتضح في الصفحات القادمة من البحث.

وأما أسلوبه في المحبة فهو أسلوب قوي متأجج العاطفة، لا هو بالأسلوب الهادئ المنبعث رأسًا من تعاليم الدين كأسلوب المحاسبي، ولا هو بالأسلوب الميتافيزيقي الغامض المتغلغل في أعماق التحليل الصوفي كأسلوب الجنيد، بل هو أسلوب واضح رقيق جميل، تغلب عليه الشاعرية، وتتدفق فيه العاطفة الدينية، ولهذا كانت أقواله في المحبة الإلهية أبلغ أثرًا في أوساط الصوفية من أقوال غيره[٢].

والمحبة عند ذي النون هي التي تكون منزهة عن الغرض، وطلب الأعواض، فقد سئل عن المحبة فقال: هي التي لا تزيدها منفعة، ولا تنقصها مضرة، ثم أنشأ يقول:

شواهد أهل الحب باد دليلها ... بأعلام صدق ما يضل سبيلها
جسوم أولى صدق المحبة والرضى ... تبين عن صدق الوداد نحولها [٣]

ويُعد ذو النون محبة الله سرًا لا يجوز أن يتحدث عنه، أو يبوح بشيء من أسراره لمن لا يعرفون من الحب غير معناه المادي الحسي؛ قال وقد تذاكر القوم المحبة في مجلسه:

كفوا عن هذه المسألة؛ لئلا تسمعها النفوس فتدعيها، ثم أنشأ يقول:

الخوف أولى بالمسيء ... إذ تألمه والحزن
والحب يجمل بالتقى ... وبالنقى من الدرن [٤]

---

[١] عبد المنعم الحفني، رابعة العدوية إمامة العاشقين والمحزونين، ص ١٩٣.

[٢] أبو العلا عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الإسلام، طبعة دار الشعب، بيروت، د.ت، ص ٢٠٩.

[٣] الأصفهاني، حلية الأولياء، ج٩، ص ٣٧٨.

[٤] رينولد "أ" نيكولسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، نقلها إلى العربية وعلق عليها: أبو العلا عفيفي، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د.ت، ص ٨.

وهذا الموقف هو موقف المقدس للمحبة، الذي يصل تقديسه لها إلى السمو بها، حتى عن الحديث عنها [1] لعامة الناس، أما الخاصة وهو المحبون لله، فقد كان ذو النون عندما يتكلم في الحب يموج مجلسه بالصارخين والباكين منهم[2].

كما كان يهيجه السماع، إذا اتصل بحب الله سبحانه، فقد حدثوا أنه لما دخل بغداد اجتمع إليه الصوفية ومعهم قوال منشد، فابتدأ ينشد:

صغير هواك عذبني فكيف به إذا احتكما
وأنت جمعت من قلبي هوى قد كان مشتركًا
أما ترثي لمكتئب إذا ضحك الخلي بكى

فانتشى ذو النون، ومن شدة نشوته سقط على وجهه، وظل الدم يقطر منه، وهو لا يدري[3].

والغاية القصوى للحب الإلهي عند ذي النون، إنما هي حب الله لذاته، والإقبال عليه ابتغاءً لوجهه، دون أن يكون له من وراء ذلك أي مطمع آخر، كما يدل على هذا كله قوله في هذه الأبيات:

أموت وما ماتت إليك صبابتي ولا رويت من صدق حبك أوطاري
مناي المنا كل المنا أنت لي منى وأنت الغنى كل الغنى عند إقصاري
وأنت مدى سؤلي وغاية رغبتي وموضع شكواي ومكنون إضماري [4]

---

(1) عبد الحليم محمود، العالم العابد العارف بالله ذو النون المصري، طبعة دار الرشاد، القاهرة، سنة ٢٠٠٤م، ص ٨٩.

(2) زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، الطبعة الثانية، ١٤٢٣- ٢٠٠٣م، دار سعد الدين، دمشق، ج١، ص ٢٤٩.

(3) عبد الحليم محمود، ذو النون المصري، ص ٨٩.

(4) محمد مصطفى حلمي، موجز دائرة المعارف الإسلامية، في تعليقه على مادة ذي النون؛ وانظر: أبو الفرج ابن الجوزي: صفة الصفوة، تحقيق: أحمد بن علي، طبعة دار الحديث، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م، ج٢، ص ٤٤٧.

٢–علامات المحبة الإلهية عند ذي النون:

يدعي كثير من الناس محبة الله عز وجل، وما أسهل دعوى اللسان، فلا ينبغي للإنسان أن يغتر بخداع النفس، بل عليه أن يعلم أن للحب علامات تدل عليه، وثمارًا تظهر في القلب واللسان والجوارح، فإذا أراد ألا يغش نفسه فليضعها في موازين الحب، وليمتحنها بعلاماته.

وحب الله على الحقيقة عند ذي النون له علامات كثيرة منها: أن تحب ما أحب الله، وتبغض ما أبغض الله، وتفعل الخير كله، وترفض ما يشغل عن الله، وأن لا تخاف في الله لومة لائم، مع العطف للمؤمنين، والغلظة للكافرين، واتباع رسول الله (ﷺ) في الدين [١].

وهذا في معنى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[٣]، فمحبة العبد لله تعني إذن عند ذي النون موافقة الكتاب والسنة منهجًا وسلوكًا، وهدفها الأخير طاعة الله ومرضاته.

ومثل ذي النون فيما ذهب إليه مثل المحاسبي حينما يقول: "المحبة في ثلاثة أشياء– لا يسمى محبًا لله عز وجل إلا بها– محبة المؤمنين في الله عز وجل، وعلامة ذلك كف الأذى عنهم، وجلب المنفعة إليهم. ومحبة الرسول (ﷺ) لله عز وجل، وعلامة ذلك اتباع سنته، ومحبة الله عز وجل في إيثار الطاعة على المعصية" [٤].

ويؤكد ذو النون على ضرورة طاعة رسول الله (ﷺ) لنيل محبة الله، فيقول: من علامات المحب لله – عز وجل– "متابعة حبيب الله (ﷺ) في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه" [٥]. وهذا يدل على أن محبة الله تعالى لا بد أن تقترن باتباع رسول الله (ﷺ)؛ فهذا الاتباع هو الذي

---

[١] ابن عربي، الكوكب الدري، ص ٩٢؛ وانظر: الأصفهاني، حلية الأولياء، ج٩، ص ٣٩٤.

[٢] سورة المائدة، الآية (٥٤).

[٣] سورة آل عمران، الآية (٣١).

[٤] الحارث بن أسد المحاسبي، رسالة المسترشدين، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبدالفتاح أبو غدة، طبعة دار السلام، حلب، سوريا، د.ت، ص ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩.

[٥] القشيري، الرسالة القشيرية، ص ٦٥.

يوصل العبد إلى مرتبة المحبوبية، أي يصبح من أحباب الله تعالى، ومن يحبه الله فهو ذو حظ عظيم.

يقول الإمام الغزالي [1]: قيل العبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا لله، وأن كل ما يرى كمالاً من نفسه أو من غيره فهو من الله وبالله لم يكن حبه إلا لله وفي الله، وذلك يقتضي إرادة طاعته، والرغبة فيما يقربه إليه، فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة، وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول (ﷺ) في عبادته والحث على طاعته" [2].

ويذكر ذو النون علامات أخرى لمحبة العبد لله، فيقول: "ثلاثة من أعلام الحب في الله: بذل الشيء لصفاء الود، وتعطيل الإرادة لإرادة الله، والسخاء بالنفس، والمشاركة في محبوبه ومكروهه بصفة العقد" [3].

و"بذل الشيء لصفاء الود" تعني عند ذي النون أن يبذل العبد جهده، وأن يصرف أعماله كلها ظاهرها وباطنها إلى الله قاصدًا بها ابتغاء صفاء وده تعالى، وقد قال ذو النون في الود: الحب لله عام، والود خاص؛ لأن كل المؤمنين يذوقون حبه وينالونه، وليس كل مؤمن ينال وده[4].

---

[1] الغزالي: هو محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالي المتكلم الأشعري، ولد بمدينة طوس بإقليم خراسان في سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م، وكان منذ صباه شغوفًا بالعلم، حريصًا على تحصيله، ودرس بطوس علوم الفقه، ثم رحل إلى جرجان وغيرها من البلدان الإسلامية في طلب العلم، ودرس على يد إمام الحرمين أبي المعالم الجويني (ت: ٤٧٨هـ) حتى صار من الأعيان والمشاهير المشار إليهم في زمن أستاذه، ولقب بحجة الإسلام، فقد شملت معارفه الفقه والأصول والكلام والمنطق والفلسفة والتصوف والأخلاق وغيرها، وله العديد من المصنفات، وتوفي سنة ٥٠٥هـ/ ١١١١م بطوس. (انظر: السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: مصطفى عبد القادر، طبعة بيروت، سنة ١٩٩٩م، ج٣، ص ٤١٧، ص ٤٢٢؛ ابن عساكر: تبين كذب المفترى عليه، طبعة دمشق، سنة ١٣٤٧هـ، ص ٢٩١، ص ٢٩٢؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٣، ص ٣٥٣، ٣٥٥).

[2] الإمام أبو حامد الغزالي، مكاشفة القلوب، طبعة مكتبة زهران، ١٤١١هـ – ١٩٩١م، ص ٣٥.

[3] الأصفهاني، حلية الأولياء، ج٩، ص ٣٩٣، ٣٩٤.

[4] ابن عربي، الكوكب الدري، ص ٩١.

ويقول ابن عربي [1]: ثبات الحب أو العشق أو الهوى أية حالة كانت من أحوال هذه الصفة، فإذا ثبت صاحبها الموصوف بها عليها، ولم يغيره شيء عنها، ولا إزالة عن حكمها، وثبت سلطانها في المنشط والمكروه، وما يسوء ويسر، وفي حالة الجهر والطرد، من الموجود الذي يجب أن يظهر فيه محبوبه، ولم يبرح تحت سلطانه لكونه مظهر محبوبه، سمي لذلك ودًا، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [2]، أي ثباتًا في المحبة عند الله وفي قلوب عباده، ولذلك سمي الحق بالودود؛ لثبات حبه [3]. فالود هو ثبات الحب كما أنه حالة خاصة لا ينالها كل مؤمن.

وقول ذي النون: "تعطيل الإرادة لإرادة الله" تعني أن تكون إرادة المحب في سلوكه موافقة لإرادة الله تمامًا، فلا يكون له مراد إلا مراد الله له، وهذا هو ما عبر عنه الصوفية المتأخرون بالفناء عن إرادة السوي– وسوف نتناول ذلك في الحديث عن المحبة والفناء– ولكن ينبغي الإشارة هنا إلى أن ذا النون في قوله: "تعطيل الإرادة لإرادة الله" لا ينفي الإرادة الإنسانية أصلاً؛ لأن قوله: "تعطيل الإرادة" يتضمن أنها موجودة وقائمة، وهو في هذا متفق مع الصوفية في إثباتهم الاستطاعة الإنسانية. يقول الكلاباذي: "وأجمعوا (الصوفية) أنهم مختارون لاكتسابهم، مريدون له، وليسوا بمحمولين عليه، ولا مجبرين فيه، ولا مستكرهين له، ومعنى قولنا: مختارون: أن الله تعالى خلق لنا اختيارًا، فانتفى الإكراه فيها، وليس ذلك على التفويض"[4].

---

[1] ابن عربي: أبو بكر محمد بن علي، شيخ الصوفية الأكبر، وشهرته محيي الدين باعتبار مصنفاته في التصوف وتفسيراته في الدين التي قيل إنه بها قد جدد الدين وأحيا الملة، ولد بمدينة مرسية بالأندلس سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م، وله العديد من المصنفات من أشهرها الفتوحات المكية، وكانت وفاته بدمشق سنة ٦٣٨هـ. (عبد المنعم الحفني: الموسوعة الصوفية، ص ٢٨٦– ٢٩١).

[2] سورة مريم، الآية (٩٦).

[3] محيي الدين بن عربي، لوازم الحب الإلهي، تحقيق وتعليق: موفق فوزي الجبر، طبعة دار النمير، دمشق ، ص ٨٤، ٨٥ .

[4] الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، ص ٦٢.

أما قول ذي النون: "السخاء بالنفس، والمشاركة في محبوبه ومكروهه بصفة العقد" فهي أن يبذل المحب نفسه من أجل حبيبه، ويستوي عنده منه المحبوب والمكروه.

ومن علامات المحبة أيضًا عند ذي النون قوله: "قل لمن أظهر حب الله: احذر أن تذل لغير الله، ومن علامة المحب لله ألا يكون له حاجة إلى غير الله" [١].

ويقول ذو النون: "ثلاثة من أعلام المحبة: الرضا في المكروه، وحسن الظن في المجهول، والتحسين في الاختيار في المحذور"[٢].

وأخيرًا من علامات المحبة الإلهية عند ذي النون "ترك كل شغل عن الله؛ حتى يكون الشغل كله به له" [٣]. أي أن المحب متعلق دائمًا بمحبوبه وقائم به، لا يشغله شيء عما سواه، وفي هذا يقول ذو النون "لا يأنسوا بسوى الله، ولا يستوحشوا مع الله؛ لأن حب الله إذا سكن في القلب أنس بالله، لأن الله أجل في صدورهم من أن يحبوه لغيره" [٤].

---

[١] أبو حامد الغزالي، مكاشفة القلوب، ص ٢٥٨.

[٢] الأصفهاني: حلية الأولياء، ج٩، ص ٣٤١.

[٣] عبد الحليم محمود، ذو النون المصري، ص ٩٠.

[٤] جلال الدين السيوطي، المكنون في مناقب ذي النون، ص ١٣٠.

المبحث الرابع

صفات المحبين وطبقاتهم عند ذي النون:

١-صفات المحبين :

يصف ذو النون المحبين بصفاء القلب، وأنهم مشتاقون إلى الله، مؤتنسون به متعبدون له أملاً في نيل مَنَّه المعرفة، فيقول: "إن لله عبادًا ملأ قلوبهم من صفاء محض محبته، وهيج أرواحهم بالشوق إلى رؤيته، فسبحان من شوق إليه أنفسهم، وأدنى منه هممهم، وصفت له صدورهم، سبحان من وفقهم، ومؤنس وحشتهم، وطبيب أسقامهم، إلهي لك تواضعت أبدانهم، وإلى الزيادة منك انبسطت أيديهم، .... ففتحت لهم أبواب سماواتك، وأبحت لهم الجولان في ملكوتك، بك آنست محبة المحبين، وعليك معول شوق المشتاقين" [١].

وعن مدى تعلق المحبين بربهم يقول ذو النون: "خوف النار إذا قيس إلى خوف القطع عن المحبوب، كقطرة الماء تقذف في أعظم المحيطات" [٢]. وفي هذا المعنى يقول ذو النون: "لو أدخل الله المحب له النار ثم عذبه بأشد العذاب، ما نقص في قلبه من حبه شيئًا، بل يزداد في حب الله"[٣].

ومن أهم صفات المحبين لله عند ذي النون الزهد الحقيقي سأل أحدهم ذا النون: "متى يتم حبي لربي؟ قال: إذا سمجت الدنيا في عينيك، وقذفت أملك فيها بين يديك، هذا زهد المحبة لا زهد العوض" [٤].

ومن صفاتهم أيضًا عنده شدة الحرص على مرضاة الله تعالى، قال أحدهم لذي النون: "متى أحب ربي؟ قال: إذا كان ما أسخطه عندك أمر من الصبر، وهذا أيضًا من استعذاب البلاء للمحبة لا لغيرها" [٥].

---

[١] ابن عربي، الكوكب الدري، ص ١٣٦.

[٢] عبد الحليم محمود، ذو النون المصري، ص ٩٠.

[٣] ابن عربي، المصدر السابق، ص ٢٣٢.

[٤] ابن عربي، المصدر السابق، ص ٩١.

[٥] ابن عربي، المصدر السابق، نفس الصفحة.

كما يصف ذو النون المحبين بالحكمة في قوله: "إسكانك حب الله في صدرك يطلع ينابيع الحكمة من قلبك" [١].

أما أخص ما يميز المحبين في رأي ذي النون فهو كتمان سر المحبة بينهم وبين الله، وقد نبه ذو النون كثيرًا إلى هذا المعنى في أقواله وأشعاره، فمن ذلك ما يذكره عنه أبو طالب المكي [٢] من قوله: "لا يحبه من شهر نفسه بحبه ...". ويرى أبو طالب المكي أن ذلك من علامة الإخلاص في المحبة؛ لأن المحبة من أعمال القلوب، وإظهارها يخشى معه المكر والاستدراج أو السلب، خاصة وأن الله تعالى غيور على محبته.

ويمتدح أبو طالب المكي ذا النون المصري حين نطق بعبارته تلك قائلاً: إن هذا كلام يدل على أن ذا النون كان من أهل الصحو [٣] في مقام المحبة، وهو يشير بذلك إلى خاصية أساسية من خصائص تصوف ذي النون، وهي أنه تصوف متزن، لا يغلب على صاحبه الشطح [٤]، ولا الأقوال المبهمة التي يمكن أن تؤخذ عليه.

وقد عبر ذو النون عن حاله هو في كتمان سر المحبة بينه وبين الله في قوله:

تضمن قلبي منه ما لا أبثه ... ولم أبد باديه لأهل ولا جار

---

[١] ابن عربي، المصدر السابق، ص ٢١٨.

[٢] أبو طالب المكي: من أشهر علماء الصوفية في وقته، وأصله من إقليم الجبال (العراق العجمي)، غير أنه سكن مكة فنسب إليها، ثم رحل إلى بغداد، وأقام بها إلى أن مات في عام ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م، ومن أشهر مصنفاته كتاب قوت القلوب. (الهجويري، كشف المحجوب، ج١، ص ٣١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص ٣٠٣، ٣٠٤؛ عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، ص ٢٦١).

[٣] أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارث الواعظ المكي، قوت القلوب، طبعة الأنوار المحمدية، تقديم: عبد الحفيظ فرغلي علي القرني، ج٢، ص ٧٧. الصحو: هو رجوع العارف إلى الإحساس بعد غيبته وزوال إحساسه. (السيد الشريف الجرجاني، التعريفات، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، سنة ١٩٣٨م، ص ١١٥).

[٤] الشطح: عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى، وهو من زلات المحققين، فإنه دعوى بحق يفصح بها العارف من غير إذن إلهي بطريق يشعر بالنباهة. (السيد الشريف الجرجاني، التعريفات، ص ١١٢).

سـرائر لا يخفـى عليـك خفيهـا وإن لـم أبـح حتـى التنـادى بأسـراري [1]

٢-طبقات المحبين :

ومن الجدير بالذكر أن ذا النون لا يقف عند حد وصف المحبين على هذا النحو الإجمالي الذي أشرنا إليه، إنما هو يتجاوز ذلك إلى تصنيفهم في طبقات أربع، وذلك بحسب قوة حبهم لله تعالى، وهو تصنيف يدل على تعمقه في دراسة النفس الإنسانية دراسة قائمة على الخبرة المباشرة.

ويظهر تصنيف المحبين عند ذي النون في قوله: "المحبون في الدنيا على أربع طبقات: منهم إذا ذكر حبيبه أنَّ، ومنهم إذا ذكر حبيبه حَنَّ، ومنهم إذا ذكر حبيبه رَنَّ[٢]، ومنهم إذا ذكر حبيبه جُنَّ" [٣]. فهو هنا يشير إلى مدى قوة الذكر لله، أو ذكر الحبيب وأثره على نفس المحب.

فالطبقة الأولى عند ذي النون طبقة "من إذا ذكر حبيبه أنَّ"، وهي أولى درجات المحبين، وفيها السالك إذا ذكر الله فإنه يتألم ويتوجع، وهو سالك يجاهد نفسه ويقهرها، ويعمل على إخفاء ألمه، ولكن تغلبه نفسه فيئن من شدة قلبه المجروح.

يقول ذو النون عمن بلغوا هذه الدرجة بلغة رمزية: "زعزع قلوب المحبين، تزعزع الرضا، فجرح القلوب حتى قرحت، ثم ألقي بها الحزن فأكمدها، فجعل مع الكمد داء دفينًا داخلاً، فأكمد كمد الكمد جلباب الحزن ..." [٤]. فهذه الطبقة هي التي إذا ذكر حبيبها (الله) أنَّت؛ لأن قلوب أصحابها مجروحة مقروحة مليئة بالحزن وتعاني الكمد.

---

[١] أبو الفرج ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج٤، ص ٢٩٢.

[٢] رنَّ: الرنو: إدامة النظر مع سكون الطرف. رنوته ورنوت إليه أرنو رنوًا، ورنا له: أدام النظر. يقال: ظل رانيًا، وأرناه غيره، والرَّنا، بالفتح مقصور: الشيء المنظور إليه، وفي المحكم: الذي يرنى إليه من حسنه. (انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج٣، مادة (رنا).

[٣] ابن عربي، الكوكب الدري، ص ٢٤٣.

[٤] ابن عربي، المصدر السابق، ص ٢٢٦.

والطبقة الثانية من طبقات المحبين هي طبقة من "إذا ذكر حبيبه حَنَّ"، وهي طبقة خلصت من الآلام والتوجع، وارتفعت إلى مشاعر وعواطف الحنين إلى الله، والتلهف إليه، فهي ممتلئة بالحب لله. يقول ذو النون: "... فاذهب بالهموم حتى أفرجها (القلوب)، ووقع فيها معمعة الرضا مع معمعة المحبة، فطارت بينهما طيرانًا أشد خفقانًا من أجنحة الطير" [1]. وفي هذه الدرجة بدأت تكتسب القلوب محبة الله ومننه من خلال حنينها إلى الله.

والطبقة الثالثة هي طبقة من "إذا ذكر حبيبه رَنَّ"، ورن من رنا، واقتضى السجع أن يقول رن، وأصحاب هذه الطبقة هم الذين إذا ذكروا حبيبهم رنوا إليه، وانقطعوا له به فهم فانون عن نفوسهم باقون بمحبوبهم، فهم في بداية حال الفناء.

أما الطبقة الرابعة، وهي أعلى الطبقات، فهي طبقة المحبين الذين إذا ذكر الله جُنوا.

وينبغي الإشارة هنا إلى أن ذا النون لا يقصد الجنون الحقيقي، وإنما يقصد تلك الأحوال التي تشبه الجنون، وهي في الحقيقة تكون مترتبة على استشعار المحبين فناء ذواتهم في ذات المحبوب، فلم يعُد لهم التفات إلى حبهم، حتى ليظن بهم الظان أنهم قد جنوا.

ويروى أن ذا النون في سياحاته قد التقى ببعض المحبين الذين بلغوا هذه الدرجة، فمن ذلك الرواية التي يرويها الفتح بن شخرف[2]، قال: "وكان سعدون[3] صاحب محبة لله لهج بالقول، صام ستين سنة حتى جف دماغه، فسماه الناس مجنونًا لتردد قوله في المحبة. قال

---

[1] ابن عربي، الكوكب الدري، ص ٢٢٦.

[2] فتح بن شخرف بن داود بن مزاحم، أبو نصر الكشِّي، كان صالحًا زاهدًا ذا معارف نامية وافية، وإعراض عن الدنيا بالجملة الكافية، أقام يأكل الخبز ثلاثين سنة، ويطعم الفقراء والأصحاب الطيب، قال أحمد بن حنبل عنه: ما أخرجت خراسان مثله. ومكث ثلاثين سنة لم يرفع طرفه إلى السماء، ثم رفع رأسه، وفتح عينيه ونظر إليها، ثم قال: قد طال شوقي إليك، فعجل قدومي عليك، فمات سنة ثلاث وسبعين ومئتين، وصلى عليه نحو ثلاثين ألفًا.
[المناوي : الكواكب الدرية، ج١، القسم الثاني، ص ٦٩٢؛ ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج١، ص ٥١١، ٥١٢].

[3] سعدون المجنون: من عقلاء المجانين ببغداد، كان عابدًا زاهدًا، عظيم الشأن، كثير السياحة والانقطاع في الفلوات، وهو من أقران ذا النون المصري رحمه الله من أهل القرن الثالث. (انظر: المناوي: طبقات الصوفية، ج٤، ص ٣٢٣؛ ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج١، ص ٥٧٠).

الفتح: فغاب عنا زمانًا، وكنت إلى لقائه مشتاقًا، لما كان وصف لي من حكمة قوله، فبينما أنا بفسطاط مصر قائمًا على حلقة ذي النون يتكلم في علم الباطن، فناداه سعدون: متى يكون القلب أميرًا بعدما كان أسيرًا؟ فقال ذو النون: إذا اطلع الخبير على الضمير، فلم ير في الضمير إلا حبه؛ لأنه الجليل العزيز، قال: فصرخ صرخة خر مغشيًا عليه، ثم أفاق من غشيته وهو يقول:

لا خير في شكوى إلى غير مشتكى ولا بد من شكوى إذا لم يكن صبر [1]

والواقع أن ذا النون نفسه قد وصل إلى هذه الدرجة في الحب مما كان سببًا في نسب الجنون إليه؛ يقول جلال الدين الرومي في المثنوي: "وسمع المريدون ما حدث لذي النون، فمضوا إلى السجن، وتشاوروا فيما بينهم، فلعله متعمد، أو أن في ذلك حكمة، أنه في هذا الدين آية وقبلة. وبعيد بعيد عن عقله الشبيه بالبحر، أن يكون الجنون آمر له بالسفه، وحاشا لله من كمال جاهه، أن يغطي المرض قمره. لقد قبع في السجن "هربًا" من شر العامة، ولقد تظاهر بالجنون من عار العقلاء" [2].

ويفهم من كلام الرومي أن ذا النون قد وصل في حب الله إلى درجة الفناء الذي هو سبيل إلى بلوغ المعرفة، وليس جنونًا كما يتوهم البعض.

---

[1] الأصفهاني، حلية الأولياء، ج٩، ص ٣٧١؛ السيوطي، المكنون في مناقب ذي النون، ص ١٥٧، ١٥٨.

[2] جلال الدين الرومي، مثنوي، ترجمه وشرحه وقدم له: إبراهيم الدسوقي شتا، طبعة ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م، ج٢، ص ١٣١، ١٣٢.

المبحث الخامس

الرمزية في التعبير عن المحبة الإلهية عند ذي النون

يستعمل الصوفية عادةً لغة الرمز [١]، وهم يحاولون التعبير عما يشعرون به في الحب الإلهي الذي يختلف عن أي حب معهود، وربما كان من دوافعهم لاستخدام الرمزية أنها أبلغ وأعظم تأثيرًا في نفوس سامعيها مما لو استعملوا لغة التصريح والتوضيح، إذ الرمزية لها عمل كعمل السحر، لا تمس العقل إلا من حيث تثير فيه الخيال والوجدان، ولكنها تمس القلب مسًا مباشرًا، ويعمق أثرها وتتضح معانيها مع التكرار، ولغة الحب الإلهي الرمزية لغة عالمية، يستعملها جميع الصوفية، على اختلاف دياناتهم وأوطانهم [٢].

ولعل من دوافعهم أيضًا غيرتهم على ما يتداولونه بينهم من معانٍ، وما يعالجونه من أفكار ومشاعر، أن يسيء فهمها أو استخدامها مَنْ ليس من أهلها، فهم يغطونها بحجاب الرمز، ويكتفون بالإشارة إليها من بعيد؛ لاعتقادهم أن القلوب المتفتحة والنفوس المهيأة للتلقي ستدرك هذه الإشارة، وتخترق حجاب الرمز، وتصل إلى المراد الذي كثيرًا ما يستعصي على من سواهم [٣].

يقول القشيري: "هذه الطائفة يستعملون ألفاظًا فيما بينهم، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والإجمال والستر على من باينهم في طريقهم، لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها؛ إذ ليس حقائقهم مجموعة بنوع تكلف، أو مجلوبة بضرب تصرف، بل هي معانٍ أودعها الله تعالى قلوب قوم، واستخلص لحقائقها أسرار قوم"[٤].

---

[١] الرمز: معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر لا يظفر به إلا أهله. (السراج الطوسي، اللمع في التصوف، اعتنى بنسخه وتصحيحه: رنولد ألن نكيلسون، طبعة بريل ليدن، ص ٣٣٨).

[٢] أبو العلا عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الإسلام، ص ٢٣٦.

[٣] حسن محمود عبد اللطيف الشافعي، فصول في التصوف، طبعة دار البصائر، ص ٢٤٣.

[٤] القشيري، الرسالة القشيرية، ص ١١٧.

وذو النون على الرغم من أن أسلوبه في كتاباته بصفة عامة كان يتميز بالجزالة اللفظية، ووضوح المعنى، وفحولة الأسلوب، إلا أنه من أوائل من استخدموا اللغة الرمزية في التعبير عن حقيقته الحب الإلهي تعبيرًا ذوقيًا، وفي التعبير عن حالة الفناء التي تقترن بالمحبة، وقد سار على نهجه وطريقته من جاء بعده من الصوفية.

ومن أوضح الأمثلة على استخدام ذي النون للرمزية في تعبيره عن الحب قوله: "وردت قلوبهم على بحر محبته، فاغترفت منه ريًا من الشراب، فشربت منه بمخاطر القلوب فسهل عليها كل عارض عرض لها عند لقاء المحبوب" [١].

ويعلق الطوسي على كلام ذي النون قائلاً عنه: تلقى الأرواح والاسرار الطاهرة لما يرد عليها من الكرامات وتنعمها بذلك فشبه ذلك بالشرب لتهنيه وتنعمه بما يرد على قلبه من أنوار مشاهدة قرب سيده" [٢].

وثمة عبارات أخرى لذي النون مصطبغة بالرمزية مثل قوله: "لما أراد أن يستقيهم من كأس محبته ذوَّقهم من لذاذته، وألعقهم من حلاوته" [٣].

وقوله: "لو لزمنا الحياء من الله ما ذكرنا المحبة، وقد شربنا من كأس الدنيا" [٤]. ومن دعاء ذي النون: "إلهي، أم من ذا الذي شرب الصافي من كأس محبتك، فلم يستبشر بقوارع محنتك؟!][٥]. ويبدو من هذا أن ذا النون يستخدم ألفاظ (الشرب) و(الكأس) في كلامه عن المحبة، وكلها تشبيهات واستعارات استخدمها هو وغيره من الصوفية لبيان ما للمحبة من آثار على الوجدان بلغة رمزية، وهو ما يشير اليه الإمام القشيري بقوله: "فإذا كوشف العبد بنعت الجمال، حصل السكر، وطاب الروح، وهام القلب ... وأعلم أن الصحو على حسب السكر، فمن كان سكره بحق، كان صحوه بحق، ومن كان سكره بحظ مشوبًا، كان صحوه بحظ

---

[١] الأصفهاني، حلية الأولياء، ج٩، ص ٣٣٨.

[٢] الطوسي، اللمع، ص ٣٧٢.

[٣] الطوسي، المصدر السابق، نفس الصفحة.

[٤] ابن عربي، الكوكب الدري، ص ٢٤٤.

[٥] السيوطي: المكنون في مناقب ذي النون، ص ٢٠٢.

صحيح مصحوبًا، ومن كان محقًا في حاله، كان محظوظًا في سكره ... والعبد في حال سكره يشاهد الحال، وفي حال صحوه يشاهد العلم، إلا أنه في حال سكره محفوظ لا بتكلفة، وفي حال صحوه متحفظ بتصرفه، والصحو والسكر بعد الذوق والشرب" [1].

وإذا طبقنا معنى لفظ (الشرب) عند الإمام القشيري على عبارة ذي النون: "وردت قلوبهم على بحرمحبته، فاغترفت منه ريًا من الشراب، فشربت منه ..." [2]. فيكون ذو النون قد تكلم عن المحبة بلغة رمزية.

والحقيقة أن منهج الصوفي الوجداني، الذي يصف فيما يصف أحوالاً ذاتية عنده، لا بد له من لغة خاصة غير اللغة العادية التي يتخاطب بها الناس، والتي تصف أحوالاً فكرية عقلية، فإذا كانت اللغة العادية هي لغة العقل والفكر، فاللغة الرمزية هي لغة الوجدان والذوق عند الصوفية.

---

[1] القشيري: الرسالة القشيرية، ص ١٤٥، ١٤٦.

[2] الطوسي: اللمع، ص ٤٤٩.

المبحث السادس

علاقة المحبة الإلهية ببعض الأحوال والمقامات عند ذي النون

ارتبطت بعض الأحوال والمقامات ؛ كالرضا، والشوق، والأنس، والفناء، والمعرفة بالمحبة الإلهية عند ذي النون ؛ ووضح ذلك في كثير من اقواله وأشعاره ، وكان لها تأثير وتأثر بالمحبة الإلهية عنده .

أولاً : المحبة والرضا:

الرضا هو التسليم الكامل القلبي لكل ما يأتي عن الحكيم الرحمن إنه منزلة ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [1]. ولن تجد بين المسلمين من لا يعترف بأن الرضا مقام سامٍ، وأنه المقام الذي يجب أن يكون عليه كل مسلم، وذلك أن كل مسلم يعترف بأن الله أحكم الحاكمين، وأنه أرحم الراحمين، ومن كان كذلك فلا بد من الرضا بقضائه [2].

والرضا من أول المنن التي يمن بها الله على عبده المؤمن، وتتلوها منه المحبة، ومن رضي الله عنه واسترضاه جدير بأن يمن عليه بالمحبة ... ولهذا يقول ذو النون عندما سئل عن الرضا، هو "سرور القلب بمر القضاء" [3].

فالرضا مقام قلبي، إذا تحقق به المؤمن استطاع أن يتلقى نوائب الدهر وأنواع الكوارث بإيمان راسخ، ونفس مطمئنة، وقلب ساكن، بل قد يترقى إلى أرفع من ذلك، فيشعر بالسرور والفرحة بمر القضاء، وذلك نتيجة ما تحقق به من المعرفة بالله تعالى، والحب الصادق له سبحانه[4].

ويقرن ذو النون المحبة بالرضا في قوله: "لم يحب الله من لم يرض بقدره" [5]. مما يفهم من ذلك وجود ارتباط بين حب الله ورضاه يظهر بوضوح عندما يذكر ذو النون تارةً الرضا من

---

[1] سورة المائدة، الآية (١١٩).

[2] عبد الحليم محمود، ذو النون المصري، ص ٨٤.

[3] الطوسي، المصدر السابق، ص ٥٣.

[4] عبد القادر عيسى: حقائق عن التصوف، ص ١٧٩.

[5] السيوطي، المكنون في مناقب ذي النون، ص ١١٤؛ ابن عربي، الكوكب الدري، ص ٢١٨.

علامات المحبة، ويذكر تارةً أخرى المحبة من علامات الرضا؛ يقول ذو النون: "ثلاثة من أعلام المحبة: الرضا في المكروه، وحسن الظن في المجهول، والتحسين في الاختيار في المحذور"[١].

فأول أعلام المحبة عند ذي النون (الرضا في المكروه)، وهو يفسره قول ابن عجيبة [٢] : "الرضا: تلقي المهالك بوجه ضاحك أو سرور يجده القلب عند حلول القضاء، أو ترك الاختيار على الله فيما دبر وأمضى، أو شرح الصدور ورفع الإنكار لما يرد من الواحد القهار" [٣].

ويقول ذو النون: "ثلاثة من أعلام الرضا: ترك الاختيار قبل القضاء، وفقدان المرارة بعد القضاء، وهيجان الحب في حشو البلاء" [٤].

وقوله: "هيجان الحب في حشو البلاء" كعلامة من علامات الرضا، يفسره لنا ذو النون نفسه، كما يفهم من هذه الرواية: "دخل ذو النون المصري على بعض إخوانه – ممن كان يذكر المحبة – فرآه مبتلى ببلاء فقال: لا يحبه من وجد ألم ضره" [٥].

أي أن المحب هو الذي يرضى بكل ما يأتيه من الحبيب، ولا يشتكي مهما وقع عليه منه، حتى لو كان بلاءً، ومثل هذا ما حكي عن الشبلي[٦] أن جماعة دخلوا عليه، "فقال: من أنتم؟

---

[١] الأصفهاني، حلية الأولياء، ج٩، ص ٣٤١.

[٢] ابن عجيبة: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي، الحسني الأنجري (١١٦٠– ١٢٢٤هـ)، دفن ببلدة أنجرة من المغرب، وله التصانيف الكثيرة منها في التصوف "شرح صلوات ابن مشيش"، و"الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية". ويبدو أن اسمه ابن عجيبة كان تعبيرًا من أهل زمنه عن سعة اطلاعه، وتمكنه من ثقافته، وقدرته على شرح آراء غيره واستيعابها. (عبد المنعم الحفني: الموسوعة الصوفية، ص ٢٨٥).

[٣] عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف، ص ١٧٩.

[٤] ابن عربي، الكوكب الدري، ص ٨٧؛ وانظر: الأصفهاني، حلية الأولياء، ج٩، ص ٣٤٢.

[٥] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٤، ص ٤٥٠.

[٦] الشبلي: أبو بكر دلف بن جحدر أو ابن جعفر، أو أنه جحدر بن دلف، فاسمه الحقيقي مختلف فيه، وشهرته بكنيته، وهو خراساني الأصل، بغدادي المولد والمنشأة، وأصله من أسروشنة، ومولده كما قيل سامرا سنة ٢٤٧هـ، وله شطحات عرفت عنه كشطحات البسطامي، وله شعر صوفي جميل، وهو من بيت عز وجاه؛ فقد كان أبوه حاجب الحجاب للموفق، وخاله أمير الأمراء بالإسكندرية، وكان الشبلي حاجبًا للموفق، وكتب الحديث ورواه، وتفقه على مذهب مالك، وصحب الجنيد شيخ الصوفية وارتبط به، وكان الشبلي كالجنيد فقيهًا وصوفيًا عاش سبعًا وثمانين =

قالوا: نحن أحباؤك. فأقبل، ثم رماهم بالحجارة فهربوا منه، فقال لهم: تهربون مني؟! لو كنتم أحبائي لما فررتم من بلائي" [1].

ويربط ذو النون كذلك بين المحبة والرضا حين سئل عنهما، فقال: "زعزع قلوب المحبين تزعزع الرضا، فجرح القلوب حتى قرحت، ثم ألقى بها في الحزن، فأكمدها، فجعل مع الكمد داءً دفينًا داخلاً، فأكمد كمد الكمد جلباب الحزن ... وطفقت النفس متململة تهش إلى القلب ليكبحه، فوقع وثائق القلب في لجام النفس، فكبحها وطردها، فاستنار القلب بنور العز، فاعتز بالرضا والمحبة، فطرد استحواذ الشيطان عنه طردًا، وطرد النفس مع الهوى ..." [2].

نستخلص مما سبق وجود ارتباط وثيق بين المحبة والرضا عند ذي النون لتوقف كلٍّ منهما على الآخر.

ثانياً : المحبة والشوق:

الشوق في اللغة احتياج القلب إلى لقاء المحبوب، وكذلك هو في اصطلاح أهل الحقيقة، حتى قال بعضهم: هو احتراق الأحشاء، وتلهب القلوب، وتقطع الأكباد، وقيل: علامته قطع الجوارح عن الشهوات. وقيل: علامته حب الموت مع كون الإنسان في العافية والراحة [3].

يقول الجنيد: سمعت السري يقول: الشوق أجل مقام للعارف إذا تحقق فيه، وإذا تحقق في الشوق لها عن كل شيء يشغله عمن يشتاق إليه [4].

=سنة، ومات في ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، ودفن في مقبرة الحيزران. [عبد المنعم الحفني: الموسوعة الصوفية، ص ٢٣٦، ٢٣٧؛ وانظر: السلمي: الطبقات الصوفية، ص ١١٥؛ ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج١، ص ٥٤٠، ٥٤١، ٥٤٢].

[1] أبو حامد الغزالي، مكاشفة القلوب، ص ٣٠؛ الهجويري، كشف المحجوب، ج٢، ص ٥٥٦.

[2] ابن عربي، المصدر السابق، ص ٢٢٦.

[3] رفيق العجم، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، طبعة بيروت– لبنان، ١٩٩٩م، الطبعة الأولى، ص ٥١٣.

[4] القشيري، الرسالة القشيري، ص ٤٣٥.

ويربط الصوفية بين المحبة والشوق، يقول ابن عربي: "الشوق للمحبة وصف لازم تابع لها، فإن الحب يتحكم بسلطانه في المحب، فيؤثر فيه على البعد وعلى القرب فسواء بُعد الحبيب، أو قرب فإن أثر الحب في المحب أمر لازم" [١].

ويقرر ابن الدباغ أن علاقة الحب بالشوق هي علاقة التلازم؛ لأن الشوق لازم عن الحب، إذ النفس تشتاق أبدًا لمن تحب [٢].

ومن المعروف أن الملزوم متقدم على لازمه.

وسئل ابن عطاء عن الشوق: فقيل له الشوق أعلى أم المحبة ؟

فقال: المحبة؛ لأن الشوق منها يتولد [٣].

وعند ذي النون الشوق من أعلى الدرجات التي ينالها الصوفي في سلوكه إلى الله عز وجل، يقول ذو النون: "الشوق أعلى الدرجات والمقامات، إذا بَلَغَهُ استبطأ الموت شوقًا إلى ربه، وحبًا للقائه والنظر إليه" [٤].

ويرى ذو النون أن "درجة الشوق هي درجة الولاية" [٥]. "الولاية هي موالاة الله بالطاعة"، وذلك لأن المشتاق إلى الله يواليه دومًا بالطاعات، فلا تتصور منه المخالفة.

ويحصر ذو النون علامات الشوق في الوحشة من الدنيا، والانقطاع عن الناس، والنزوع إلى ما بعد الموت الذي ينقل المشتاق إلى أمله الكبير. عن سعيد بن عثمان، قال: قال ذو النون: ثلاثة من أعلام الشوق: حب الموت مع الراحة، وبغض الحياة مع الدعة، ودوام الحزن مع الكفاية" [٦].

---

[١] محيي الدين بن عربي، لوازم الحب الإلهي، ص ٥٦.

[٢] الدباغ، مشارق أنوار القلوب، ص ٦٧.

[٣] القشيري، المصدر السابق، ص ٤٣٣.

[٤] عبد الحليم محمود، ذو النون المصري، ص ٩٢.

[٥] ابن عربي، الكوكب الدري، ص ١٠٩.

[٦] ابن عربي، المصدر السابق، ص ٩٣.

وقد سأل أبو محمد عبد الله بن سهل ذا النون: متى أشتاق إلى ربي؟ قال: إذا جعلت الآخرة لك قرارًا، ولم تسم الدنيا لك مسكنًا ودارًا ..." [١].

ويذهب ذو النون إلى أن للشوق أثرًا شديدًا على السالك، فيقول: "الشوق لا يسكن جارحة إلا تركها رميمًا" [٢]. وهذا المعنى نجده عند ابن عطاء[٣] عندما سُئل عن الشوق، فقال: "احتراق الأحشاء، وتلهب القلوب، وتقطع الأكباد" [٤].

ويصف ذو النون الاشتياق بأنه سر الملكوت [٥]. فيقول: "ومن شغل قلبه ولسانه بالذكر، قذف الله في قلبه نور الاشتياق إليه، وهذا سر الملكوت فاعلمه واحفظه؛ حتى يكون الله عز وجل هو الذي يناوله من يشاء من عباده" [٦].

وعن أحمد بن يوسف قال: سُئل ذو النون عمن استحق الاشتياق، فقال: "إذا استحق الاشتياق قرُب من باب الخلاَّق، وشرب من كأس المذاق، فشاق واشتاق" [٧].

وأما عن علاقة المحبة بالشوق عند ذي النون فهي علاقة التلازم، وقد وضحها في كثير من أقواله، منها قوله: "فإذا استحكمت معاني المحبة في قلبه [أي: المؤمن]، سكن بعدها درجة الشوق"[٨].

---

[١] الأصفهاني، حلية الأولياء، ج٩، ص ٣٩٢.

[٢] ابن عربي، المصدر السابق، ص ٩٢.

[٣] ابن عطاء الله السكندري: أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله، وكنيته تاج الدين، وينسب إلى الإسكندرية؛ حيث ولد وعاش إلى أن غادرها إلى القاهرة بعد وفاة شيخه أبي العباس المرسي سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م. وكانت له اليد الطولى في كثير من العلوم، ويعد من أبرز ممثلي التصوف المصري في القرن السابع الهجري، ومن مصنفاته الحكم العطائية، وتوفي بالقاهرة سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م. [عبد المنعم الحفني: الموسوعة الصوفية، ص ٢٩٥-٢٩٧].

[٤] القشيري، الرسالة القشيرية، ص ٤٣٣.

[٥] سر الملكوت: السر: يطلق فيقال سر العلم بإزاء حقيقة العالم به، وسر الحال بإزاء معرفة مراد الله فيه، وسر الحقيقة ما ما تقع به الإشارة. الملكوت: عالم الغيب. (انظر: الشريف الجرجاني، التعريفات، رسالة في بيان اصطلاحات الصوفية محيي الدين ابن عربي الواردة في كتابه الفتوحات المكية، ص ٢٣٧، ص ٢٤٣).

[٦] الأصفهاني، المصدر السابق، ج٩، ص ٣٧٩.

[٧] عبد الحليم محمود، ذو النون المصري، ص ٩٢.

[٨] ابن عربي، الكوكب الدري، ص ١٠٩؛ جلال الدين السيوطي، المكنون في مناقب ذي النون، ص ١٥٠.

وعندما سُئل ذو النون: كم الأبواب على الفطنة؟ قال: أربعة، أولها الخوف، ثم الرجاء، ثم المحبة، ثم الشوق. ثم قال: ولها أربعة مفاتيح: ... وحب العبادة والشوق مفتاح باب المحبة، وذكر الله الدائم بالقلب واللسان مفتاح باب الشوق" [1].

ويذهب ذو النون إلى أن المحبين لا غنى لهم عن الشوق والاشتياق إلى الحبيب، فيقول: "ما العيش عندي إلا عيش المشتاقين؛ لأنهم ما داموا محبين مجردين عن لباس الشوق، فهم مكدودون، حتى إذا تدرعوا خلع الشوق طاشت همومهم، ورتعوا في رياض السرور، ورفعت عنهم المكابدات، فعاشوا بروح الله في أعظم القدر" [2].

ويعني ذو النون بهذا أن المحبين عندما يتلبسون بالشوق تزول عنهم الهموم، وينعمون بالسعادة، وترفع عنهم الشدائد. وقوله: "عاشوا بروح الله في أعظم القدر"، أن المحبين عاشوا بعناية الله في أعظم مكانة، وهي الولاية (درجة الشوق)، ولا يعني ذو النون بذلك معنى الاتحاد أو الحلول؛ لأنه متصوف، يقوم تصوفه على الكتاب العزيز والسنة النبوية الشريفة.

وقد جاء وصف المشتاقين المتعلقين بحب الله في كلام ذي النون على الوجه الآتي:

"قال: سقاهم من صرف المودة شربة، فماتت شهوتهم في القلوب من خوف عواقب الذنوب، وذهلت أنفسهم عن المطاعم، من حذر فوت المناعم، في دار يستطاب فيها المكاره، قد أنحلوا الأبدان بالجوع والأحزان، وصفوا القلب من كل كدر، فهي معلقة بمواصلة المحبوب ... ثم قال:

شـــوق أضـــر بمهجـــة المشـــتاق أجـــرى ســـوابق عبـــرة الآفـــاق

لعبـــت يـــد العبـــرات فـــي وجناتـــه وكـــذا بـــه لعبـــت يـــد الأشـــواق [3]

يتضح مما سبق ارتباط المحبة بالشوق عند ذي النون، ووجود علاقة تلازم بينهما؛ فالشوق لازم عن المحبة؛ لأن المحب في شوق دائم للمحبوب.

---

[1] ابن عربي: الكوكب الدري، ص ١٠٩.

[2] ابن عربي: المصدر السابق، ص ٩٢، ٩٣.

[3] ابن عربي، المصدر السابق، ص ١٣٤.

ثالثاً : المحبة والأنس:

كما تكلم ذو النون في الشوق كلازم من لوازم المحبة، تكلم كذلك في أخص لوازمها، وهو الأنس بالله. يقول ذو النون: "فإذا استحكمت معاني المحبة في قلبه، سكن بعدها درجة الشوق، فإذا سكن اشتاق، فأداه الشوق إلى الأنس بالله، فإذا أنس بالله اطمأن إلى الله، فإذا اطمأن إلى الله، كان ليله في نعيم، ونهاره في نعيم، وسره في نعيم، وعلانيته في نعيم" [١].

وهذا يعني أن أُنس المحب يأتي بعد اشتياقه للمحبوب، فالعبد المحب إذا ما اشتاق إلى محبوبه بدأت ثمرة الأنس تنمو في وجدانه، وتمتد جذورها إلى أعمق أعماقه لتشع السكينة والطمأنينة والفرح في جنبات فؤاده.

ويعرف ذو النون الأنس بأنه "انبساط المحب إلى المحبوب" [٢]. والمحب هو الصوفي السالك، والمحبوب هو الله، والانبساط هو انفعال من الانفعالات يرد إلى الإرادة الإلهية، وإن شئت قلت هو وارد يرد على قلب الصوفي من غير تعمد منه ولا اجتلاب.

ويرى ذو النون أن من أحب الله على الحقيقة استأنس به، واستوحش من خلقه، وانقطع عن كل شيء سواه؛ يقول ذو النون:

الأنس بالله نور ساطع والأنس بالخلق غم واقع [٣]

ويقول أيضًا: "الأنس بالله صفاء القلب مع الله، والتفرد بالله الانقطاع من كل شيء سوى الله"[٤].

ويكرر ذو النون نفس المعنى بعبارات أخرى، فيقول: "ثلاثة من أعلام الأنس بالله تعالى: استلذاذ الخلوة، والاستيحاش من الصحبة، واستحلاء الوحدة" [٥]. فالوحشة من الخلق وحب الخلوة والوحدة كلها تدل على أنس العبد المحب بالرب المحبوب.

---

[١] السيوطي: المكنون في مناقب ذي النون، ص ١٥٠.

[٢] الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، ص ١٢٥.

[٣] ابن عربي: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، ص ٨٨.

[٤] السلمي: الطبقات الصوفية، ص ١٣.

[٥] السيوطي: المكنون في مناقب ذي النون، ص ١٣٦.

يقول ذو النون: "إذا رأيته يؤنسك بخلقه، فإنه يوحشك من نفسه، وإذا رأيته يوحشك من خلقه، فإنه يؤنسك بنفسه" [1].

ويصور ذو النون كيف يكون حال المستأنس بالله قائلاً: "والمستأنس بالله في وقت استئناسه يستأنس بجميع ما يرى، ويسمع، ويحس به في ملكوت ربه، ويستأنس بالذر فما دونه ويهابه" [2].

قال عبد الله بن خلف: ذكرت ذلك لأحمد بن أبي الحواري فقال: "صدق أبو الفيض كذلك أيضًا حال المحب كمال المستأنس؛ لأنه لا يقع بصره على ملك محبوبه على شيء إلا كان حب المحبوب موجود فيه [3].

ومعنى ذلك أن المستأنس بالله يحب كل شيء في الوجود من إنسان وحيوان وجماد، ويهابه هيبة مستمدة من هيبته لله؛ لأنه مشاهد لأحدية الله في هذه المخلوقات، فإذا أحب الخالق أحب المخلوق.

ويذهب ذو النون إلى أن المحب لله يستأنس بالله، ولا يشعر بغربة حتى لو ألقي في النار؛ وذلك لفرط أنسه بربه، فيقول: "أدنى منازل الأنس أن يلقى في النار، فلا يغيب همه عن مأموله" [4].

نستخلص مما سبق أن الأنس بالله عند ذي النون من لوازم محبته تعالى، فإن من أحب الله أنس به، واستغنى في حبه عما سواه.

رابعاً : المحبة والفناء:

الحب الإلهي ينتهي بالصوفية إلى ذروة التجربة الروحية حسب قولهم، وهو الفناء ففنوا في محبوبهم الأعلى فناء على حد قولهم لم يشاهدوا خلاله غير جمال الحبيب، لا يحسون بشيء من الموجود؛ لأن الإحساس قد فنى بالنسبة لهذه الموجودات، واتجه بكليته لمطالعة

---

[1] الأصفهاني: حلية الأولياء، ج٩، ص ٣٤٣.

[2] المصدر السابق، ج٩، ص ٣٩٣.

[3] ابن عربي: الكوكب الدري، ص ٨٨.

[4] السلمي: الطبقات الصوفية، ص ١٤.

المحبوب، وبالفناء يفقد الصوفية عالم الناس ليعيشوا في عالم آخر هو عالم الجمال المطلق، والخير المطلق والحق المطلق، وفي عالمهم هذا ترفع الأستار عن الأسرار حسب ما يزعمون، وتتجلى لهم الحقائق حق اليقين وعين اليقين" [١] .

وذو النون المصري من أسبق الصوفية [٢]، الذين تعمقوا في فهم معنى الفناء، وربطوا بينه وبين المحبة برباط وثيق، بيد أنه لم يورد لفظ الفناء صراحة في أقواله، ولكنه وصف حالات للصوفي في حديثه عن الذكر والمحبة والمعرفة هي أقرب إلى معنى الفناء، وذلك على زعم أن لفظة الفناء كانت شائعة ومتداولة في عصره خاصة عند معاصره أبي يزيد البسطامي. ولعل السبب في ذلك أن تصوف ذي النون أساسًا كان متقيدًا بالكتاب والسنة، وليس فيهما لفظ الفناء، أو أن ذا النون كان أكثر دقة وحذرًا من غيره من الصوفية، باعتبار أن الفناء مزلة أقدام الرجال أدى بالكثير منهم فيما بعد إلى القول بوحدة الوجود [٣].

ويربط ذو النون المحبة بالفناء عندما يصف المحبين لله بأنهم قد ملأت محبة الله صدورهم؛ لذلك لا يلتفتون لأي كلام صدر ممن حولهم من الناس، ولا يجدون لذة في شيء

---

[١] ليلى زكي قطب، إنشاد محمد على عبية: تأملات في التصوف والأخلاق الإسلامية، ص١٢١. حق اليقين: ما حصل من العلم بما أريد به ذلك الشهود. عين اليقين: ما أعطته المشاهدة. (رسالة في بيان اصطلاحات رئيس الصوفية ابن العربي الواردة في كتابه الفتوحات المكية ملحقة بكتاب التعريفات للسيد الشريف الجرجاني، ص ٢٣٧.

[٢] كانت نظرية أوائل الصوفية في الفناء مستندة إلى فكرتهم في الإرادة الإلهية، وأن الله تعالى هو المريد في الحقيقة لكل شيء، فيجب أن يتخلى العبد عن إرادته، ويترك الأمر لصاحبه، وذلك بخلاف نظرية الفناء المستندة إلى فكرة أن الله هو (الوجود المطلق)، فالصوفي في هذه الحالة لا يحاول الفناء عن إرادته، بل الفناء عن العالم الظاهر، وعن كل ما لا حقيقة له في ذاته، وهو ما يسمى بوحدة الوجود. (رينولد "أ" نيكولسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص ١٠٣، ١٠٤).

[٣] وحدة الوجود: أجمعوا على أن الأشياء موجودة في الخارج كما هو مذهب النظار غير أنهم قالوا هي موجودة بوجود واحد هو الحق سبحانه لا أنها موجودة بوجود زائد على الوجود الحق سبحانه. انظر: رفيق عجم، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، ص ١٠٣٤.

سوى الأنس بالله، ومحادثة الله عز وجل، يقول ذو النون عنهم: "قد ملأت محبة الله صدورهم، فليس يجدون لكلام المخلوقين شهوة، ولا بغير الأنيس، ومحادثة الله لذة" [١].

ولعل في هذه الجملة "الأنس بالله ومحادثة الله" إشارة إلى الفناء في الله؛ لأنهم لا يجدون كلامًا إلا كلام الله، ولا أنيسًا إلا الله [٢].

وكلام ذي النون عن الفناء الذي يرتبط بالمحبة يتضمن ثلاثة أنواع متميزة:

أولها: الفناء عن إرادة السوي، وهو فناء خواص الأولياء وأئمة المقربين السالك فيه يفنى بمراد محبوبه منه عن مراده هو من محبوبه، فضلاً عن إرادة غيره [٣].

ويظهر ذلك المعنى في قول ذي النون: "من أعلام الحب في الله: بذل الشيء لصفاء الود، وتعطيل الإرادة لإرادة الله، والسخاء بالنفس، والمشاركة في محبوبه ومكروه بصفة العقد"[٤].

فقوله: "تعطيل الإرادة لإرادة الله" تعني الفناء عن إرادة السوي، بمعنى أن تفنى إرادة المحب تمامًا في إرادة الله بحيث لا تكون له إرادة مع محبوبه، فقد اتحد مراده بمراد محبوبه، أعني: المراد الديني الأمري، لا المراد الكوني القدري، فصار المرادان واحدًا [٥].

يقول ابن القيم [٦] عن هذا النوع من الفناء: "وليس في العقل اتحاد صحيح إلا هذا، فغاية المحبة: اتحاد مراد المحب بمراد المحبوب، وفناء إرادة المحب في مراد المحبوب، فهذا

---

[١] الأصفهاني، حلية الأولياء، ج٩، ص ٣٣٨.

[٢] محمد شلبي شيتوي، التصوف والصوفية في ضوء النصوص الدينية والبراهين العقلية، ص ٩٩.

[٣] رفيق عجم، المرجع السابق، ص ٧٣٦– ٧٣٨.

[٤] الأصفهاني، المصدر السابق، ج٩، ص ٣٩٣، ٣٩٤.

[٥] ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، دراسة وتحقيق: د. ناصر بن سليمان السعودي وآخرون، دار الصميعي للنشر والتوزيع، ج١، ص ٥١٠.

[٦] ابن قيم الجوزية: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي تلميذ ابن تيمية، وولادته ووفاته بدمشق (٦٩١– ٧٥١هـ)، وله عديد من التصانيف منها كتابه "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين". (عبد المنعم الحفني: الموسوعة الصوفية، ص ٣٣٣).

الاتحاد والفناء هو اتحاد خواص المحبين وفناؤهم، فنوا بعبادة محبوبهم عن عبادة ما سواه، وبحبه وخوفه ورجائه والتوكل عليه والاستعانة به، والطلب منه، عن حب ما سواه وخوفه ورجائه والتوكل عليه" [١].

وذو النون في ذلك يُعد سابقًا على ابن الفارض [٢] سلطان العاشقين الذي ذهب أيضًا إلى مثل ذلك فهو يرى أن المحب الفاني لا يكون له التفات إلى مراده هو أو مراد غيره، ويتحد عندئذ مراده بمراد محبوبه، فجعل الحب وسيلة إلى الفناء عن إرادة السوي [٣].

ويشير ابن الفارض إلى مثل هذا الفناء قائلاً:

وكنت بها صبًا فلما تركت ما ... أريد أرادتني لها وأحبت
فصرت حبيبًا، بل محبًا لنفسه ... وليس كقول مرَّ، نفسي حبيبتي [٤]

ويصير المحب أيضًا في هذه الحالة عند ابن الفارض راضيًا عن محبوبه تمام الرضا، مسلمًا له قيادة، فيخاطب محبوبه قائلاً:

وعن مذهبي في الحب مالي مذهب ... وإن ملت يومًا عنه فارقت ملتي
ولو خطرت لي في سواك إرادة ... على خاطري سهوًا قضيت بردتي
لك الحكم في أمري فما شئت فاصغي ... فلم تك إلا فيك لا عنك رغبتي [٥]

ومن الجدير بالذكر أن الفناء عن إرادة السوي عند ذي النون يجب أن يكون مقترنًا باحترام الأوامر والنواهي الشرعية، وهو ما عبر عنه ذو النون بقوله: "السخاء بالنفس والمشاركة في

---

[١] ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين، ج١، ص ٥١٠.

[٢] ابن الفارض: أبو حفص وأبو القاسم عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي (٥٧٦– ٦٣٢هـ) الصوفي المصري الأول بلا منازع ورأس شعراء الصوفية، ويلقب بسلطان العاشقين، فقد حفل ديوانه بأناشيد الحب الإلهي. (عبد المنعم الحفني: الموسوعة الصوفية، ص ٣١١– ص ٣١٣).

[٣] أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ص ٢٢٠.

[٤] ديوان الإمام العارف الشيخ عمر بن الفارض، مطبعة الحسينية المصرية، ١٣٣٠هـ– ١٩١٣م، ص ٣٥.

[٥] ديوان ابن الفارض، ص ٢٧.

محبوبه ومكروهه بصفة العقد" [1]. وهو يعني هنا التقرب إلى الله بالطاعات والمجاهدات، وقهر النفس، وتخليتها عن مذامها وعللها، وهو يؤكد ذلك عندما يقول: "أول الطريق إلى الله المحبة، وعلامة المحبة لله إعطاء القياد، وبذل الأرواح، والتلذذ بالتلف في محابه وموافقته" [2].

يقول ابن القيم: "ومن تحقيق هذا الفناء أن لا يحب إلا في الله، ولا يبغض إلا فيه، ولا يوالي إلا فيه، ولا يعادي إلا فيه، ولا يعطي إلا له، ولا يمنع إلا له، ولا يرجو إلا إياه، ولا يستعين إلا به، فيكون دينه كله ظاهرًا وباطنًا لله، ويكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما، فلا يواد من حاد الله ورسوله، ولو كان أقرب الخلق إليه، بل:

يعادي الذى عادى عن الناس كلهم جميعًا ولو كان الحبيب المصافيا

وحقيقة ذلك فناؤه عن هوى نفسه وحظوظها بمراضي ربه وحقوقه. والجامع لهذا كله: تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله علمًا ومعرفة وعملاً وحالاً وقصدًا" [3].

والثاني: من أنواع الفناء عند ذي النون الفناء عن شهود المحبة ذاتها بمعنى أن المحب يفنى عن المحبة نفسها، فلا يشعر بمحبته لحبيبه.

وإلى هذا المعنى من المعاني يشير ذو النون عندما سئل: "ما المحبة الصافية التي لا كدرة فيها؟ فقال: حب الله الصافي الذي لا كدرة فيه: سقوط المحبة عن القلب والجوارح حتى لا يكون فيها المحبة، وتكون الأشياء بالله ولله، وذلك المحب لله" [4].

أما النوع الثالث: فهو الفناء عن شهود السوي [5]، وهو فناء يستشعر فيه الصوفي فناء ذاته في ذات المحبوب، وإلى ذلك يشير ذو النون بقوله:

---

[1] الأصفهاني، حلية الأولياء، ج٩، ص ٣٩٤.

[2] ابن عربي، الكوكب الدري، ص ٢٤٢.

[3] ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ج١، ص ٥١٠، ٥١١.

[4] الطوسي، اللمع، ص ٥٩.

[5] الفناء عن شهود السوى: هو الفناء الذي يشير إليه أكثر الصوفية، فحقيقته فناء ما سوى الله عن شهودهم، وحسهم فهو فهو غيبة أحدهم عن سوى مشهوده، بل غيبته أيضًا شهوده ونفسه؛ لأنه يغيب بمعبوده عن عبادته، وبمذكوره عن ذكره، وبموجوده عن وجوده، وبمحبوبه عن حبه، وبمشهوده عن شهوده. وقد يسمى حال مثل هذا سكرًا واصطلامًا ومحوًا وجمعًا ... وهذا إذا عاد اليه عقله يعلم أنه كان غالطًا، وأن الحقائق متميزة في ذاتها، فالرب رب، والعبد عبد،

حبـــــك قـــــد أرقنـــــي وزاد قلبـــــي ســـــقما
كتمتـــــه فـــــي القلـــــب والأحشـــــا حتـــــى انكتمـــــا
لا تهتـــــك ســـــتري الـــــذي ألبســـــتني تكرمـــــا
ضـــــيعت نفســـــي ســـــيدي فردهـــــا مســـــلما [1]

ويقصد ذو النون بضياع النفس هنا شعور المحب بفناء ذاته في ذات محبوبه.

يذكر يوسف بن الحسين [2] أنه كان عند ذي النون "فجاءه رجل وقال له: رأيت أبا يزيد البسطامي، فقيل له: أنت أبو يزيد؟ فقال: ومن أبو يزيد؟! يا ليتني رأيت أبا يزيد، فبكى ذو النون وقال: إن أخي أبا يزيد فقد نفسه في حب الله تعالى، فصار يطلبها مع الطالبين لها" [3].

ومن عبارات ذي النون التي تدل على هذا النوع من الفناء قوله: "من ذكر الله على حقيقه، نسى في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضًا من كل شيء" [4]. وقوله، عندما سئل عن الذكر، فقال: غيبة الذاكر عن الذكر، ثم أنشد:

والخالق بائن عن المخلوقات، ليس في المخلوقات شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته. (رفيق العجم، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، ص ٧٣٧، ٧٣٨).

[1] الأصفهاني، حلية الأولياء، ج٩، ص ٣٨٣.

[2] أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي: كان من كبار أئمة عصره، وهو من مدينة الري بإقليم الجبال، وكان عالمًا دينًا، وروى الحديث، وكان مريدًا لذي النون المصري، وصحب كثيرًا من شيوخ عصره وخدمهم جميعًا، وتوفي سنة ٣٠٤هـ/ ٩١٦م. (الهجويري، كشف المحجوب، ج١، ص ٣٤٨؛ السلمي: الطبقات الصوفية، ص ١٨٥).

[3] ابن عربي، الكوكب الدري، ص ٨٩؛ عبد الحليم محمود، سلطان العارفين أبو يزيد البسطامي، ص ٦١.

[4] ابن عربي، الكوكب الدري، ص ٨١.

لأ لا بـــي أنســـاك أكثـــر ذكـــراك ولكـــن بـــذاك يجـــري لســـاني [1]

ويقول ذو النون عن التوحيد: "من كان في توحيده ناظرًا إلى نفسه، لم يُنجه توحيده من النار"[2]. وهذه العبارات تحمل في طياتها معنى الغيبة والفناء، أي أن المحب الذاكر والموحد يجب أن يفقد نفسه تمامًا في ذكره وتوحيده، بمعنى أن يغيب بشعوره وحبه، ويفنى في الله فناءً تامًا، فلا يعود مشاهدًا لنفسه؛ لأنه يغيب بمعبوده عن عبادته، وبمذكوره عن ذكره، وبموحده عن توحيده، وبمشهوده عن شهوده.

مما سبق نستنتج أن ذا النون كان من أوائل الصوفية الذين تحدثوا عن الفناء، وجمعوا بينه وبين المحبة، وقد كان المعتقد أن أبا يزيد البسطامي هو أول من تكلم في معنى الفناء عند الصوفية، ولكن يبدو لنا أن ذا النون– وهو معاصر له– قد أولى هذا الموضوع عناية كبيرة، وذلك حين ربط بين الحب والفناء برباط وثيق كما رأينا.

ونستنتج كذلك أن صوفية الحب الإلهي المتأخرين– أمثال ابن الفارض– قد تأثروا بذي النون في حديثه عن الحب الإلهي والفناء.

ونستنتج أيضًا أن الفناء الذي يرتبط بالمحبة عند ذي النون كان خاليًا تمامًا من القول بالفناء عن وجود السوي [3]. أي فناء القائلين بوحدة الوجود.

يقول الدكتور أبو العلا عفيفي في ذلك: "وقد يقال إن في بعض ما أثر عنه (ذو النون) من أقوال في المحبة الإلهية نفحة من نفحات وحدة الوجود؛ لأنه لا يرى في الوجود شيئًا إلا رأى الله فيه، ولكن القول بوجود نظرية في وحدة الوجود في هذا العصر المبكر من عصور التصوف مبالغة لا مبرر لها، والأولى أن توصف أقوال أمثال ذي النون المصري بأنها نفثات قلوب فاضت بالمحبة الإلهية، واستبدت بها وحدة الشهود لا وحدة الوجود"[4].

---

[1] ابن عربي، المصدر السابق، نفس الصفحة.

[2] ابن عربي، المصدر السابق، ص ١٠٣.

[3] يقول ابن القيم: "فأما الفناء عن وجود السوي، فهو فناء الملاحدة القائلين بوحدة الوجود، وأنه ما ثم غير، وأن غاية العارفين والسالكين الفناء في الوحدة المطلقة، ونفي التكثر والتعدد عن الوجود بكل اعتبار، فلا يشهد غيرًا أصلاً، بل يشهد وجود العبد عين وجود الرب، بل ليس عندهم في الحقيقة عبد ورب". (ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ج١، ص ٤٨٧).

[4] أبو العلا عفيفي: التصوف الثورة الروحية في الإسلام، ص ٢٠٩، ٢١٠.

خامساً : المحبة والمعرفة:

أحل ذو النون المصري المعرفة منزلة هامة في مذهبه، فقد رأى أن غاية الحياة الصوفية الوصول إلى مقام المعرفة الذي تتجلى فيه الحقائق، فيدركها الصوفي إدراكًا ذوقيًا لا أثر فيه للعقل، ولا للرؤية، وذلك لا يكون إلا لخاصة أهل الله الذين يرونه بأعين بصائرهم [١].

والمعرفة عند ذي النون على ضروب ثلاثة: الأول: معرفة عامة المؤمنين، والثاني: معرفة المتكلمين والحكماء، والثالث: معرفة خواص الأولياء المقربين الذين يعرفون الله بقلوبهم. يقول الدكتور محمد مصطفى حلمي: "وليس من شك في أن هذا الضرب الثالث من المعرفة هو عند ذي النون أرقى وأسمى ضروبها جميعًا. وذلك لأنها تتخذ موضوعها من الذات الإلهية، وما لهذه الذات من صفات الوحدانية، ومن لا تحصل عن طريق الكسب والتعلم والتصور والاستدلال، وإنما هي إلهام، ونفث في الروع، ونور يقذفه الله في سر العبد، فيعرف العبد الله معرفة مباشرة لا واسطة فيها، ويقينية لا شك يعتريها"[٢].

وقد أشار ذو النون إلى ذلك حين سُئل: "بم عرفت ربك؟ قال: عرفت ربي بربي، ولولا ربي لما عرفت ربي" [٣]. وقد سُئل أيضًا ذو النون: بِمَ عرف العارفون ربهم؟ فقال ما نصه: "إن كان بشيء فيقطع، والإشراف منهم على اليأس مع التمسك منهم بالأحوال التي أقامهم عليها، وبذل المجهود من أنفسهم، ثم إنهم ما وصلوا بعد إلى الله إلا بالله" [٤].

وأهل المعرفة عند ذي النون محجوبون عن غيرهم من الناس، رعايةً من الله لهم؛ نظرًا لعلو مكانتهم مع عدم ظهورهم بالادعاء بين الناس، وفي هذا المعنى يقول: "سبحان من حجب أهل المعرفة عن جميع خلقه، حجبهم عن أبناء الدنيا بأستار الآخرة، وعن أبناء الآخرة بأستار الدنيا"[٥].

---

[١] رينولد. أ. نيكولسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص ٧٤.

[٢] محمد مصطفى حلمي، في تعليقه على مادة ذي النون، موجز دائرة المعارف الإسلامية، طبعة الشارقة للإبداع الفكري، الجزء السادس عشر.

[٣] ابن عربي، الكوكب الدري، ص ١٠٢.

[٤] ابن عربي، المصدر السابق، ص ١٠٠.

[٥] ابن عربي، المصدر السابق، ص ٩٧.

وفي حقيقة المعرفة يقول ذو النون: "حقيقة المعرفة إطلاع الحق على الأسرار بمواصلة لطايف الأنوار، وأنشد في المعنى شعرًا:

للعـــارفين قلـــوب يعرفـــون بهـــا نـور الإلـه بسـر السـر فـي الحجـب
صـم عـن الخلـق، عمـي عـن منـاظرهم بكـم عـن النطق في دعواه بالكـذب [1]

ولقد سُئل ذو النون عن كمال المعرفة فقال: "إذا كنت بالله – عز وجل– متعلقًا، وغير ناظر إلى سواه من أحوالك وأعمالك، فأنت كامل المعرفة" [2].

وأما عن علاقة المحبة بالمعرفة، فيرى ذو النون أن المحبة هي وسيلة الصوفي إلى المعرفة بالله ذوقًا (المعرفة الكشفية)، ولا يصل إلى نهاية الطريق إلا من لازمته المحبة.

وهذا الذي جعل ذو النون يصف الحب لله بأنه "أول الطريق إلى الله" [3].

ويوضح ذو النون طريق أهل المحبة للوصول إلى المعرفة فيقول:

شـــواهد أهـــل الحـــب بـــاد دليلهـــا بـــأعلام صـــدق مـــا يحيـــل ســـبيلها
جســـوم قـــد أضـــناها المحبـــة والرضـــا يبـــين عـــن صـــدق الـــوداد نحولهـــا
إذا باحـــت الأفهـــام أنـــس نفوســـهم بألســـنة تخفـــي علـــى النـــاس قيلهـــا
وضـحت نفـوس المسـتهامين فاشـتكت جـوى كـاد عـن أجسـامها يسـتزيلها
يحنـون حزنًـا ضـاعف الحـزن شـجوه ونيـــران شـــوق كالســـعير غليلهـــا
وساروا على نجب الرشاد وإلى العلى يـــؤم بهـــم تقـــواه إذ هـــو دليلهـــا
فحطـوا بـدار القـدس فـي خيـر منـزل وفـاز بزلفـى ذي الجـلال حلولهـا [4]

يفهم من هذه الأبيات وخاصة في البيت السادس (وساروا على نجب الرشاد ...) أن ذا النون يرى أن طريق أهل المحبة للوصول إلى المعرفة المباشرة (أي: معرفة الله بلا وساطة الناشئة عن الكشف والشهود) هو تقوى الله، كما يفهم من البيت السابع (فحطوا بدار القدس

---

[1] ابن عربي، الكوكب الدري، ص ٩٩.

[2] عبد الحليم محمود، ذو النون المصري، ص ٨٦.

[3] ابن عربي، الكوكب الدري، ص ٢٤٢.

[4] ابن عربي، الكوكب الدري، ص ٩١؛ الأصفهاني، حلية الأولياء، ج٩، ص ٣٧٨.

...) أن قلوب أهل المحبة قد ارتقت إلى عالم الشهادة، وتحققت بالمعرفة الكشفية الذوقية بالله، وهي غاية المحبة والرضا الذي عبر عنها بقوله:

فحطـوا بـدار القـدس فـي خيـر منـزل وفـــاز بزلفـــى ذي الجـــلال حلولهـــا

ويرى ذو النون أن المحبة من لوازم العارف، فقد سُئل ذات يوم: "ما أغلب الأحوال على العارف؟ قال: حبه، والحب فيه، ونشر الآلاء، وهي الأحوال التي لا تفارقه" [١].

وقد ربط ذو النون بين المحبة والمعرفة في كثير من أقواله، نذكرها فيما يلي:

يقول ذو النون: "قلوب أهل المحبة محترقة بنار المحبة، وقلوب أهل المعرفة نازلة إلى ميدان المنة، وقلوب أهل الولاية تنظر إلى صاحب الولاية" [٢]. وهذا يعني أن المعرفة أعلى درجة من المحبة من حيث درجة القرب من الله، وتلقي مننه تعالى.

ومن أقوال ذي النون عن أهل المحبة والمعرفة "أن لله عبادًا على الأرائك يسمعون كلام الله إذا كلم المحبين في المشهد الأعلى؛ لأنهم عبدوه سرًا، فأوصل إلى قلوبهم طرائف البر (المعرفة الكشفية)، عملوا ببعض ما علموا، فلما وقفوا في الظلام بين يديه، هدى قلوبهم إلى ما يعلمون، فحسرت ألبابهم لمعرفة الوقوف بين يديه" [٣].

ويقول ذو النون أيضًا: "إنك إذا أطعته، أفادك حبه، وأدناك إلى قربه، وإذا أدناك إلى قربه، أسبل عليك حجاب هيبته، ثم لذذك بمناجاته، وآنسك بذكره، فإذا آنسك بذكره، أقعدك على موائد سره (أي أعطاك العلم اللدني)، ثم روحك، وفضلك، وحكمك، وأيدك، ثم أوصلك بوصاله إلى موصله (وهو المعرفة الكشفية)، فاتصلت بلا وصل، ووصلت بلا فصل، وهذا المقام (يقصد مقام المعرفة) العالي والمرتبة العظمى، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء" [٤].

---

[١] الأصفهاني، حلية الأولياء، ج٩، ص ٣٧٤.

[٢] السيوطي، المكنون في مناقب ذي النون، ص ١١٤.

[٣] الأصفهاني، المصدر السابق، ج٩، ص ٣٥٥.

[٤] ابن عربي، الكوكب الدري، ص ٢٤٤.

كما يقول ذو النون في أحد أدعيته:

"إلهي لا تترك بيني وبين أقصى مرادك حجابًا إلا هتكته، ولا حاجزًا إلا رفعته، ولا وعرًا إلا سهلته، ولا بابًا إلا فتحته، حتى يقيم قلبي بين ضياء معرفتك، وتذيقني طعم محبتك، فيا من أسأله إيناسًا به وإيحاشًا من خلقه، ويا من إليه التجائي في شدتي ورجائي، ارحم غربتي، وهب لي من المعرفة ما أزداد به يقينًا، ولا تكلني لنفسي الأمارة بالسوء طرفة عين"[1].

فهو هنا يدعو ربه أن يهتك الحجب، ويرفع الحواجز، وييسر الوعر من الطريق، ويفتح له باب الشهود بحيث ينغمس قلبه في ضياء "المعرفة"، ويتذوق طعم المحبة.

بالنظر فيما سبق، يتضح لنا أن المحبة عند ذي النون ترتبط ارتباطًا واضحًا بالمعرفة الكشفية؛ حيث إن الصوفي عندما يفنى في محبوبه، فإنه يكون مستعدًا لقبول الفيوضات الإلهية التي هي بمثابة النور الذي يقذفه الله في قلب من يحب.

---

[1] الأصفهاني، حلية الأولياء، ج٩، ص ٣٤٣.

المبحث السابع

نماذج من مشاهدات ذي النون للمحبين الإلهيين

طاف ذو النون في البلاد والسواحل والجبال، فقابل كثيرًا من العابدين المجتهدين والعابدات، ومنهم من بلغ في محبة الله تعالى أعلى الدرجات، فسمع لأقوالهم ومكاشفاتهم، وشاهد أحوالهم، وقد كان لذلك كبير الأثر في إرساء قواعد نظريته في المحبة، ورسم معالمها.

وبناءً عليه اقتضت ماهية البحث أن نتعرف على بعض مشاهدات ذي النون لهؤلاء المحبين والمحبات لله وفي الله، وحكايته عنهم، ومشاهداته لهم.

ومشاهدات ذي النون للمحبين في أغلب ما يحكى تنم على خلفية من الطبيعة، فيقول: كنت في جبال الشام، أو تيه إسرائيل، ويقصد سيناء، أو على شط نيل مصر، أو بين أشجار الشام، أو في البحر، أو في جبال بيت المقدس، وهكذا ...

ولقاءاته مع النساء بخاصة كثيرة جدًا، دون أن يذكر أسماءهن، ورواياته بهذا الخصوص لا تعد، وهن دائمًا من العابدات، وحديثهن لا يكون إلا في المحبة، وتجري هذه اللقاءات على خليفة طبيعية يصف فيها الليل والسماء والماء، ورهبة الفقر، ووحشة الجبال، والألوان تستهويه، ومن ذلك خضرة الشجر، وسواد الليل وبياض النهار، ودكنة الجبال، وصفرة الصحراء، والناس عنده سود البشرة أو بيض، والأصوات يلونها الحزن والشجن، والقلوب تحرقها اللوعة، ودائمة الأنين [1].

ومن مشاهدات ذي النون للمحبين ما يلي:

١–في شوارع مصر: (وجه حبيبك يهدي الحيارى):

حدثوا أن ذا النون قال: بينما أنا مارٌّ في شوارع مصر، رأيت جارية مسفرة بغير خمار، فقلت لها: يا جارية ! أما تستحين أن تمشي بغير خمار؟ فقالت: يا ذا النون، ما يصنع الخمار بوجه قد علاه الاصفرار؟ فقال ذو النون: ومن أي شيء علاه الاصفرار؟ قالت: من محبته. قلت: يا جارية، عساك تناولت شيئًا من شراب القوم! فقالت: اسكت يا بطال! شربت بكأس وده، ونمت مسرورة، فأصبحت بحب مولاي مخمورة. فقلت: يا جارية، عسى فائدة أنتفع بها منك، أو وصية أرويها عنك؟ فقالت: يا ذا النون، عليك بالسكوت، حتى لا يتوهموا أنك مبهوت، وارضَ من الله بالقوت يبنِ لك بيتًا في الجنة من ياقوت، ثم أنشدت:

---

[1] عبد المنعم حفني: رابعة العدوية إمامة العاشقين والمحزونين، ص ١٩٢، ١٩٣.

تهتك ولا تخش في الحب عارًا وإياك إياك تبدي استتارا
وبادر إلى الباب مع فتية لهم في الظلام عيون سهارى
وإن خفت عند الميسر الضلال فوجه حبيبك يهدي الحيارى [1]

في هذه القصة نجد معنى من معاني المحبة عند ذي النون، وهو أن المحب يجب عليه ألا يتحدث عن المحبة، أو يبوح بها لمن لا يعرف من المحبة غير معناها الحسي.

وورود اسم "الجنة" في هذا الحديث لا ينفي صدق الحب؛ لأن الجنة في أكثر كرمهم إنما هي رمز بمعن الرضوان في الحب، والصوفية عمومًا يجردون الحب من الصفة النفعية، فيجعلونه خالصًا لذات الله، بغض النظر عن رجاء الثواب، والخوف من العقاب [2].

٢–في تيه بني إسرائيل:

وعن محمد بن الحسين المصري قال: سمعت ذا النون يقول: بينما أسير في تيه بني إسرائيل، إذ أنا بجارية سوداء، قد استلبها الوله من حب الرحمن، شاخصة ببصرها نحو السماء، فقلت لها: السلام عليك يا أختاه. فقالت: وعليك السلام يا ذا النون. فقلت لها: من أين عرفتيني يا جارية؟ فقالت: يا بطال، إن الله عز وجل خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام، ثم أدارها حول العرش، "فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف"، فعرفت روحي روحك في ذلك الجولان حول عرش الرحمن. فقلت لها: إني لأراك كليمة، علميني شيئًا مما علمك الله. فقالت: يا أبا الفيض، ضع على جوارحك ميزان القسط؛ حتى يذوب كل ما كان لغير الله، ويبقى القلب مصفى، ليس فيه غير الرب عز وجل، فعند ذلك يقيمك على الباب، ويوليك ولاية جديدة، ويأمر الخزان لك بالطاعة. فقلت: يا أختاه، زيديني. فقالت: يا أبا الفيض: "خذ من نفسك لنفسك، وأطع الله إذا خلوت، يحبك إذا دعوت"، ثم تركتني وولت [3].

نلاحظ في حديث هذه الجارية لذي النون علامة من علامات المحبة عنده، وهي عدم الذل لغير الله، وعدم طلب الحاجة من غير الله تعالى، وهذا إن دل فإنما يدل على تأثر ذي النون بأحوال ومكاشفات المحبين والمحبات لله تعالى.

---

[1] د. زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ج١، ص ٢٤٧.

[2] د. زكي مبارك: المصدر السابق، ج١، ص ٢٤٦، ٢٤٧.

[3] السيوطي: المكنون في مناقب ذي النون، ص ٨٤، ٨٥.

٣–في تيه بني إسرائيل: أحبك حبين:

حدثنا عثمان بن محمد بن عثمان، ثنا محمد بن أحمد الواعظ، ثنا العباس بن يوسف الشكلي، ثنا سعيد بن عثمان، قال: كنت مع ذي النون في تيه بني إسرائيل، فبينما نحن نسير، إذا بشخص قد أقبل، فقلت: أستاذ، شخص؟ فقال لي: انظر، فإنه لا يضع قدمه في هذا المكان إلا صديق. فنظرت فإذا امرأة، فقلت: إنها امرأة. فقال: صديقة ورب الكعبة. فابتدر إليها، وسلم عليها، فردت السلام، ثم قالت: ما للرجل ومخاطبة النساء؟ فقال لها: أني أخوك ذا النون، ولست من أهل التهم. فقالت: مرحبًا، حياك الله بالسلام. فقال لها: ما حملك على الدخول إلى هذا الموضع؟ فقالت: آية في كتاب الله تعالى: "ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها" [١]. فكلما دخلت إلى موضع يعصى فيه، لم يهنني القرار فيه بقلب، قد أبهلته شدة محبته، وهام بالشوق إلى رؤيته. فقال لها: صفي لي فقالت: يا سبحان الله! أنت عارف تكلم بلسان المعرفة تسألني؟ فقال: يحق للسائل الجواب، فقالت: نعم، المحبة عندي لها أول وآخر، فأولها لهج القلب بذكر المحبوب، والحزن الدائم، والتشوق اللازم، فإذا صاروا إلى أعلاها شغلهم وجدان الخلوات عن كثير من أعمال الصالحات. ثم أخذت في الزفير والشهيق، وأنشأت تقول:

أحبك حبين حب الهوى ... وحبًا لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى ... فذكر شغلت به عن سواكا
وأما الذي أنت أهل له ... فكشفك للحجب حتى أراكا
فما الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ثم شهقت شهقة، فإذا هي قد فارقت الدنيا [٢].

وفي هذه الرواية لم يذكر ذو النون أيضًا اسم هذه المرأة العابدة العاشقة، وإنما نقل عنها أبياتًا في تقسيم الحب إلى حبين: حب الهوى، وحب خليق بذات الله وحده، وإذا عرفنا أن هذه الأبيات قد اشتهر نسبتها إلى رابعة العدوية هنا نتساءل: هل التقى ذو النون ورابعة؟ لقد

---

[١] سورة النساء، آية (٩٧).

[٢] الأصفهاني: حلية الأولياء، ج٩، ص ٣٤٨.

اختلفت آراء بعض العلماء والباحثين حول هذا اللقاء بين مثبت ونافٍ، وكان لكل رأي أدلته التي يستند عليها في تدعيم رأيه [1]– وهذا ليس موضوع البحث– فقد ذكر الدكتور محمد مصطفى حلمي أنه "على الرغم من أن كتب التراجم والطبقات قد تضاربت في إثبات الصلة بين ذي النون ورابعة ونفيها، فإننا لا نستطيع مع ذلك أن ننكر ما بين مذهبيهما في الحب الإلهي واستعمالهما للألفاظ الدالة عليه، والمعبرة عنه من أوجه الشبه" [2].

٤–في جبال بيت المقدس: إن المحب هو الصبور:

حدثنا أبو الحسن محمد بن محمد ثنا أحمد بن عيسى الوشاء قال: سمعت أبا عثمان سعيد بن الحكم يقول: سمعت أبا الفيض ذا النون بن إبراهيم يقول: بينما أنا أسير ذات ليلة ظلماء في جبال بيت المقدس، إذ سمعت صوتًا حزينًا وبكاء جهيرًا، وهو يقول: يا وحشتاه بعد أنسنا. يا غربتاه عن وطننا. وافقراه بعد غنانا، واذلاه بعد عزنا. فتبعت الصوت حتى قربت منه، فلم أزل أبكي لبكائه، حتى إذا أصبحنا نظرت إليه، فإذا رجل ناحل كالشن المحترق، فقلت: يرحمك الله تقول مثل هذا الكلام؟ فقال: دعني، فقد كان لي قلب فقدته، ثم أنشأ يقول:

قد كان لي قلب أعيش به ... بين الهوى فرماه الحب فاحترقا

فقلت له:

لم يشتكي ألم البلا ... وأنت تنتحل المحبة

إن المحب هو الصبور ... على البلاء لمن أحبه

حب الإله هو السرور ... مع الشقاء لكل كربة[3]

وفي هذه القصة يؤكد ذو النون على معنى من معاني المحبة، وهو صبر المحب على بلاء الحبيب، فالمحب هو الذي لا يشتكي مهما أصابه في حبه لحبيبه، فهو دائمًا يشعر بالسعادة حتى مع الشقاء والمحن.

هذا القليل من الكثير من لقاءات ومشاهدات ذي النون للمحبين والمحبات، واكتفيت بهذا القدر لعدم الإطالة.

---

[1] عبد الرحمن بدوي: شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية، ص ٧١– ٧٤؛ عبد المنعم الحفني: رابعة العدوية إمامة العاشقين والمحزونين، ص ١٩٥– ١٩٨.

[2] محمد مصطفى حلمي: موجز دائرة المعارف الإسلامية، الجزء السادس عشر، مادة ذي النون.

[3] الأصفهاني: حلية الأولياء، ج٩، ص ٣٤٥.

خاتمة

وضح من خلال صفحات البحث "المحبة الإلهية عند ذي النون المصري" أنه درس منذ وقت مبكر في تاريخ التصوف دعائم نظريته في المحبة الإلهية، وأبان البحث علامات المحبة عند ذي النون، ومنها أن نحب من أحب الله، ونبغض من أبغض الله، ونفعل الخير كله، ونرفض ما يشغل عن الله، وأن لا نخاف في الله لومة لائم، مع العطف للمؤمنين، والغلظة للكافرين، واتباع رسول الله (ﷺ) في الدين.

كما أبان البحث صفات المحبين وطبقاتهم عند ذي النون، كصفاء القلب، وأنهم مشتاقون إلى الله، مؤتنسون به متعبدون له، وغيرها من الصفات الأخرى للمحبين التي أشرت إليها في ثنايا البحث.

كذلك وضح من خلال البحث أن ذا النون من أوائل الصوفية الذين يستعملون عادةً لغة الرمز، وهم يحاولون التعبير عما يشعرون به في الحب الإلهي الذي يختلف عنه أي حب معهود، كما أشار البحث إلى ارتباط المحبة بالرضا بكل ما يأتي عن الحكيم الرحمن، إذ قرن ذو النون المحبة بالرضا في قوله: "لم يحب الله من لم يرضَ بقدره"، كما ربط بين المحبة والشوق؛ إذ يرى أن الشوق أعلى الدرجات والمقامات.

كما أبان البحث أيضًا علاقة المحبة بالشوق عند ذي النون، فهي علاقة التلازم، كذلك أوضح أن من أخص لوازم المحبة هو الأنس بالله.

أيضًا بيَّن البحث أن ذا النون من أسبق الصوفية الذين تعمقوا في فهم معنى الفناء، وربطوا بينه وبين المحبة برباط وثيق، فقد وصف المحبين لله بأنهم قد ملأت محبة الله صدورهم، لذلك لا يلتفتون لأي كلام صدر ممن حولهم من الناس، ولا يجدون لذةً في شيء سوى الأنس بالله.

وأظهر البحث علاقة المحبة بالمعرفة عند ذي النون، إذ يرى أن المحبة هي وسيلة الصوفي إلى المعرفة بالله ذوقًا، ولا يصل إلى نهاية الطريق إلا من لازمته المحبة.

وأخيرًا أشار البحث إلى نماذج من مشاهدات ذي النون للمحبين الإلهيين؛ حيث طاف ذو النون في البلاد والسواحل والجبال، فقابل كثيرًا من العابدين المجتهدين والعابدات، فسمع لأقوالهم ومكاشفاتهم، وشاهد أحوالهم، وقد كان لذلك عظيم الأثر في إرساء قواعد نظريته في المحبة، ورسم معالمها، كما وضح خلال صفحات هذا البحث.

المصادر والمراجع

أولاً– القرآن الكريم.

ثانيًا– المصادر:

١–الأصفهاني: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (ت: ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م)

– حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، طبعة دار الفكر، بيروت سنة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٢–الجرجاني: السيد الشريف الجرجاني (ت: ٨١٦هـ/ ١٤١٣م)

– التعريفات، طبعة مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، سنة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م.

٣–ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت: ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)

– صفوة الصفوة، طبعة حيدر آباد، سنة ١٣٧٥هـ. وطبعة دار الحديث القاهرة، سنة ٢٠٠٩م، تحقيق أحمد بن علي.

٤–الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد (ت: ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م)

– شذرات الذهب، طبعة بيروت، د.ت.

٥–ابن الخطيب: الوزير لسان الدين بن الخطيب (ت: ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م)

– روضة التعريف بالحب الشريف، تحقيق وتعليق وتقديم: عبد القادر أحمد عطا، طبعة دار الفكر العربي، د.ت.

٦–ابن خلكان: أبو القاسم شمس الدين أحمد بن محمد (ت: ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)

– وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة القاهرة، سنة ١٩٤٨م.

٧–ابن الدباغ: عبد الرحمن بن محمد الأنصاري (ت: ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م)

– مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب، تحقيق: هـ. ريتر، طبعة دار صادر، د.ت.

٨–الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت: ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م)

– مختار الصحاح، عني بترتيبه: محمود خاطر، طبعة دار المعارف مصر، سنة ١٩٩٠م.

٩–الرومي: جلال الدين الرومي (ت: ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م)

– المثنوي، ترجمه وشرحه وقدم له: إبراهيم الدسوقي شتا، طبعة القاهرة، سنة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١٠– السبكي: تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي (ت: ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م)

– طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: مصطفى عبد القادر، طبعة بيروت، سنة ١٩٩٩م.

١١– السلمي: محمد بن الحسين بن موسى السلمي (ت: ٤١٢هـ/ ١٠٣١م)

– طبقات الصوفية، تحقيق: أحمد الشرباصي، طبعة القاهرة، سنة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

١٢– السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت: ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)

- المكنون في مناقب ذي النون، تحقيق: عبد الرحمن حسن محمود، طبعة القاهرة، سنة ١٩٩٢م.
١٣- الطوسي: أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي (ت: ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م)
- اللمع في التصوف، اعتنى بنسخه وتصحيحه: رنولد ألن نيكلسون، طبعة ليدن، سنة ١٩١٤م.
١٤- ابن عربي: الشيخ محيي الدين بن عربي (ت: ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م)
- الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، طبعة القاهرة، سنة ٢٠٠٦م.
- لوازم الحب الإلهي، تحقيق وتعليق: موفق فوزي الجبر، طبعة دمشق، سنة ١٩٩٨م.
١٥- ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت: ٥٧١هـ/ ١١٧٥م)
- تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، طبعة دمشق، سنة ١٣٤٧هـ
١٦- الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ/ ١١١١م)
- إحياء علوم الدين، علق عليه: جمال محمود محمد سيد، طبعة دار الفجر للتراث، القاهرة، سنة ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- مكاشفة القلوب، طبعة مكتبة زهران، القاهرة، سنة ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
١٧- أبو الفدا: عماد الدين إسماعيل (ت: ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)
- المختصر في أخبار البشر، طبعة مكتبة المتنبي، القاهرة، د.ت.
١٨- القشيري: أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت: ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م)
- الرسالة القشيرية في علم التصوف، تحقيق ودراسة: هاني الحاج، طبعة المكتبة التوفيقية، د.ت.
١٩- ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر الدمشقي (ت: ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م):
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، دراسة وتحقيق: ناصر بن سليمان السعودي وآخرون، طبعة دار الصميعي، سنة ٢٠١١م.
٢٠- الكلاباذي: أبو بكر محمد الكلاباذي (٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)
- التعريف لمذهب أهل التصوف، قدم له وحققه وراجع أصوله وعلق عليه: محمود أمين النواوي، طبعة المكتبة الأزهرية، القاهرة، سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
٢١- المحاسبي: أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (ت: ٢٤٣هـ/ ٨٥٧م)
- رسالة المسترشدين، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه عبد الفتاح أبو غدة، طبعة دار السلام، سوريا، سنة ١٩٦٤م.

٢٢- المكي: أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارث المكي (ت: ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م)
- قوت القلوب، طبعة الأنوار المحمدية، تقديم: عبد الحفيظ فرغلي على القرني، طبعة ١٩٨٥م
٢٣- المناوي: زين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي (ت: ١٠٣١هـ/ ١٦٢١م)
- الكواكب الدرية، تحقيق: محمد أديب الجادر، طبعة دار صادر، بيروت، د.ت.
٢٤- ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت: ٧١١هـ/ ١٣١١م)
- لسان العرب، طبعة دار المعارف، مصر، سنة ١٩٧٩م.
٢٥- الهجويري: أبو الحسن علي بن عثمان بن أبي علي الجلابي (ت: حوالي سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م)
- كشف المحجوب، ترجمة وتحقيق: إسعاد عبد الهادي قنديل، مراجعة: أمين عبد المجيد، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، سنة ١٩٧٥م.

المراجع:

٢٦- جرجي زيدان:
- تاريخ آداب اللغة العربية، طبعة دار الهلال، القاهرة، د.ت.
٢٧- جورج طرابيشي:
- معجم الفلاسفة ،طبعة بيروت دار الطليعة ،الطبعة الثالثة سنة ٢٠٠٦م
٢٨- حسن محمود عبد اللطيف الشافعي: (دكتور)
- فصول في التصوف، طبعة دار البصائر، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠٨م.
٢٩- رفيق العجم: (دكتور)
- موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، طبعة بيروت، لبنان، سنة ١٩٩٩م.
٣٠- رينولد . أ. نيكلسون:
- في التصوف الإسلامي وتاريخه، نقلها إلى العربية وعلق عليها أبو العلا عفيفي، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د.ت.
٣١- زكي مبارك: (دكتور)
- التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، الطبعة الثانية، دمشق، سنة ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
٣٢- عبد الحليم محمود: (دكتور)
- سلطان العارفين أبو زيد البسطامي، طبعة القاهرة، د.ت.
- العالم العابد العارف بالله ذو النون المصري، طبعة دار الرشاد، القاهرة، سنة ٢٠٠٤م.
٣٣- عبد الرحمن بدوي: (دكتور)

- شهيدة العشق الإلهي (رابعة العدوية)، طبعة النهضة المصرية، سنة ١٩٦٢م.

٣٤- عبد القادر عيسى:

- حقائق عن التصوف، طبعة مطابع الديوان، نورويش، إنجلترا، د.ت.

٣٥- عبد المنعم الحفني: (دكتور)

- الموسوعة الصوفية، طبعة القاهرة، سنة ١٩٩٢م.
- رابعة العدوية إمامة العاشقين والمحزونين، طبعة دار الرشاد، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة ١٩٩٦م.

٣٦- أبو العلا عفيفي: (دكتور)

- التصوف والثورة الروحية في الإسلام، طبعة دار الشعب، بيروت، د.ت.

٣٧- الفارض: (الشيخ عمر بن الفارض)

- ديوان الإمام العارف الشيخ عمر بن الفارض، مطبعة الحسينية المصرية، سنة ١٣٣٠هـ- ١٩١٣م.

٣٨- ليلى زكي قطب (دكتورة) – رواشا محمود علي (دكتورة)

- تأملات في التصوف والأخلاق الإسلامية، طبعة القاهرة، د.ت.

٣٩- محمد شلبي شتيوي (دكتور)

- التصوف والصوفية في ضوء النصوص الدينية والبراهين العقلية، الطبعة الأولى، دار السحاب، القاهرة، سنة ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.

٤٠- محمد مصطفى حلمي: (دكتور)

- الحياة الروحية في الإسلام، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٤م.
- موجز: دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى، بيروت، سنة ١٩٩٨م.

٤١- أبو الوفا الغنيمي التفتازاني: (دكتور)

- مدخل إلى التصوف الإسلامي، طبعة دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة ١٩٧٩م.